أميرة محمود يوسف

الدنيا لبي في تالي

متتالية قصصية

Diwan

أميرة محمود يوسف

الدنيا اللي في بالي

متتالية قصصية

تدقيق لغوي: أحمد مدرة
تصميم الغلاف: أحمد الصباغ
الإخراج الفني: حسن عصام

الطبعة الأولى ٢٠٢٤
رقم الإيداع: ٢٠٢٣/٣٠٤٨٣
الترقيم الدولي: ٣-٨-٨٧١٩٣-٩٧٧-٩٧٨

Diwan للنشر PUBLISHING

www.diwanegypt.com
publishing@diwanegypt.com
Diwan Publishing
diwan.publishing
Diwan Publishing

٦٣ شارع النادي ناصية شارع ٢٥٠ - المعادي - القاهرة

الآراء الواردة في هذا الكتاب تقع تحت مسؤولية المؤلف، ولا تعبّر بالضرورة عن آراء الناشر

إهداء

لأصحاب الحضور الأقوى في الكتاب:

فؤاد حداد،

ألفين سنة ويفضل كلامك جميل كما وعدت.

د. أحمد خالد توفيق،

إلى الأبد يبقى كل ما قلته وفعلته جميلًا يا جميل.

إهداء ثانٍ

لهما،

وله،

ولهم.

تتقصف الأقلام ما تترك أثر

حسي وحده اللي يقف ع السطر

عندي صرخة أم ما دوت

صمت راح يقتلني لو زود

– فؤاد حداد

ما قبل المقدمة

كلام لا يهم أحدًا غيري، لكن يمكن قراءته من باب المشاركة.

لا يمر يوم تقريبًا دون أن أفتح «حدث في مثل هذا اليوم» على فيسبوك فور أن تعلن الساعة منتصف الليل دون أن أنتظر حتى الصباح، أشاهد وأتعجب، وأتساءل: كيف أتيت بكل هذه الطاقة للحكي؟ أنّى لي هذا؟ كنت أكتب أكثر من مرة في اليوم الواحد، وكل مرة أكتب ما يعادل صفحات، وفجأة توقف كل هذا، فقدت القدرة على الكتابة، بل والقدرة حتى على الكلام.

تحولت دراميًا من كوني الفتاة التي تتحدث طول الوقت، لأصبح الفتاة التي تختار أقصر جمل ممكنة لتنهي الحديث سريعًا. أضفت إلى روتيني فقرة يومية تتلخص في كوني أفتح الشاشة وأحدق في الصفحة البيضاء لساعات، أحدق فيها وأنا لا أعرف من أين أبدأ ولا ماذا أقول، ليس لقلة الأفكار، لكن كأني نسيت الكلام. «حبسة». حبسة هي الكلمة المناسبة لوصف ما حدث، ووصف إحساسي به.

تمر سنوات وأنا على هذه الحال. ربما أكتب عدة جمل قصيرة كل عدة شهور، ولا شيء أكثر. ربما أكتب «نفسي أرجع أكتب» وأصمت ثانية. وأخبر الأصدقاء أنني أود بشدة أن أكتب ثانية، وأطلب من أمي الدعاء لي بفك العقدة، وأدعو في السجود أن يُجري الله لساني وقلمي ثانية، ولا يحدث شيء.

في كل مرة أقدم نفسي فيها لشخص جديد، أشعر بغصة، أنطق وظيفتي سريعًا كأني آكل الكلمات. رغم حبي لعملي فإن صورتي عن

نفسي وما كنت أود تعريف نفسي به هو «كاتبة». الكتابة هي ما أود فعله، وما أود ربط نفسي به، وما أنتمي إليه.

وكما حُبِست أنا ولساني فجأة، تحررنا فجأة أيضًا دون مقدمات، لعلها استجابة دعاء في ساعة مباركة، ولحظة لطف من الله بي.

كتبت. كتبت بتردد في البداية، وبعض الخوف، ثم كتبت بسعادة، ثم كتبت وأنا قلقة من عودة الصمت ثانية، ثم كتبت بحماس، وإرهاق، ورضا عن صفحة، وسخط على أخرى.

كتبت وأنا لا أصدق أني أفعلها ثانية. كتبت، فكان هذا الكتاب.

كتبت، فتأكدت أني لا أريد سوى أن أكتب، وأن يقرأ أحدهم ما كتبت فيبتسم، أو حتى يبكي، ويقول: «هذا أنا.»

مقدمة

عن الكتاب، وهذه قد تهمك ما دمت قد قررت قراءة الكتاب بالفعل.

هذه قصص عادية جدًا. وعادية هنا لا تشير إلى جودتها؛ فالحكم متروك للقارئ العزيز بطبيعة الحال، أما ما أعنيه حين أقول إنها عادية جدًا فهو أنها قصص تحدث كل يوم، ليس فيها أحداث غير عادية أو خارقة، ولا أبطال شديدو الوسامة أو تعساء للغاية أو سعداء سعادة استثنائية، بل أشخاص عاديون يمرون بأحداث عادية، والبطل الحقيقي في كل قصة هو المشاعر؛ فستجد قصة بطلها الخوف، وأخرى بطلها العار، وثالثة بطلها الغضب.

خمس عشرة قصة تختلف في كل شيء، وتتفق في هدف وحيد: أن تتوقف لتنظر، وتتأمل في الحدث اليومي العادي، والشخص العادي، والمشاعر التي تمر مرور الكرام. لا أعدك بتغيرات ملحمية في الأحداث، لكن كل قصة ستقرؤها على لسان صاحبها، وسترى العالم من مقعده. ربما بعد ذلك يحدث أن تقابل البطل نفسه في يومك العادي، فتكون أكثر رأفة به هذه المرة بعد أن عرفت كيف يشعر ويرى، وهذا أقصى ما أتمناه.

الحكاية الأولى:

أحيانًا يكون الأوان قد فات بالفعل

«تحكيها الفتاة التي أتمت ثلاثة وثلاثين عامًا مؤخرًا وما زالت تحاول»

وتقول عليّ كبير السن

وأنا في قلبي ولد كتكوت

وتشوفني ببكي وبنعي وائِن

والدنيا لسه بنت بنوت

إشمعنى قلبي ضناه الشيب؟

– فؤاد حداد

أقف أمام المرآة وأنا أفكر في مفهوم «التجاوز» بينما أصفف شعري القصير في محاولة جاهدة للوصول إلى أحسن طريقة أخفي بها جبهتي العريضة التي لم أحبها يومًا. يتحدث الناس طول الوقت عن التجاوز. حاول أن تفتح شبكة الإنترنت وستجد آلاف المقالات التي تعلمك كيف تتجاوز حبك القديم، وتخبرك كيف تمضي قدمًا في حياتك العاطفية.

صديقك الجديد يؤكد دائمًا على أهمية تجاوز علاقات الصداقة القديمة التي فسدت بلا رجعة، وطبيبك النفسي يشدد على ضرورة تجاوز صدمات الطفولة والتخلص من جروح إساءة أهلك والمضي

قدمًا في حياتك، هذا طبعًا قبل أن يأخذ منك ستمائة جنيه نظير حكمته، لكن لا يعلمك أحد كيف تتجاوز تصوراتك الحالمة التي عفّى عليها الزمن!

كيف يمكنك تجاوز تصوراتك الخيالية عن نفسك، وتجاوز خططك القديمة التي تأخر الوقت بالفعل لتحقيقها؟

تخيل أن كل الناس كانت مثلك يومًا ما، صورتها عن مستقبلها وعن نفسها مختلفة تمامًا عن حالها الآن. أظن أن كل طفل –في أي مكان في العالم– رأى نفسه في أحلام اليقظة ناضجًا ناجحًا جميلًا ذكيًا متفهمًا. ولو سألت أي شخص وهو صغير عن حلمه فأنت لا تتوقع أن تكون الإجابة مثلًا أنه سيكبر ويظل سنة واثنتين وثلاثًا يبحث عن عمل ولا يجد، ولن تنتظر أن يحكي لك بحماس عن حلمه بأن يظل يتنقل بين الوظائف دون استقرار حقيقي ودون أمان وظيفي. وبالطبع لن يكون حلم تلك الطفلة البريئة أن يصبح وزنها زائدًا، ولن تتطلع إلى مستقبل مليء بالمشكلات الحقيقية مع شكل أنفها ووجهها والبثور الحمراء المتناثرة على وجنتيها. لكن الناس تكبر لتصبح هكذا. هذا ما حدث. وأنت أيضًا كبرت، وأصبحت ما أنت عليه، وتأخر الوقت لتغيير ذلك.

أنظر إلى الدهون الزائدة التي تخفي وسطي تحتها –رغم كل محاولات أنظمة التخسيس مع طبيبتي العزيزة– وأنا أدور ببطء أمام المرآة، وأمسح بيدي على الشعرات البيضاء التي ظهرت على استحياء، وشعري الذي لم يفلح البروتين الرديء الذي استخدمته في فرده، بل زاد الأمر سوءًا وأصبح يشبه خيوط الصوف، وأفكر:

هكذا... الناس تكبر لتصبح هكذا.

هذا ما عليّ –وعلى الجميع في ما أظن– تقبّله فعلًا؛ فلو فشلت في تجاوز هذه الصور القديمة، وبقيت عالقًا فيها مصرًا عليها، فالنتيجة أنك ستصبح بشكل ما أضحوكة، مثل هذا الرجل الخمسيني –خال أمي– الذي أفكر فيه دائمًا؛ فهو يقضي يومه في كتابة القصائد الرديئة، ويلقي هذه القصائد في ندوات ثقافية تُعقَد غالبًا في مكتبات جامعية أو قصور ثقافة ومكتبات مغمورة، وسط حضور لا يزيد على عشرة أفراد معلّا، جميعهم من الشباب المتحمس، أكبرهم في عمر أحفاده، ويستمد التقدير من مناداتهم إياه «أستاذنا» أو «الشاعر الكبير» التي يفعلونها من باب جبر الخواطر. هذا رجل لم يستطع يومًا تصديق أن تصوراته عن نفسه كشاعر مُلهِم لم تكن صحيحة، لم تحدث، وتأخر الوقت لتحدث. هذا رجل يقاوم ما لا يمكن هزيمته، يقاوم مرور الأيام ونواميس الكون.

أنصرف من أمام المرآة غير راضية كالعادة، لكن لم يعد ثمة شيء يمكنني فعله لتحسين شكلي أكثر من ذلك، بينما أصل إلى نتيجة منطقية: لذلك نحتاج إلى التجاوز؛ فالتجاوز يُمكّنك من إنقاذ ما يمكن إنقاذه، يمنحك نعمة الرضا بالمتاح وصنع الأفضل منه، ستُقدّر حياتك ووقتك في هذا العالم أفضل لو علمت أن هذه هي أفضل الحيوات المحتملة المتاحة لك.

أسمع صوت أمي تستعجلني ثانية. يبدو أن استغراقي في أفكاري جعل خطواتي بطيئة للغاية في عبور الممر القصير الواصل بين غرفة نومي وغرفة المعيشة. أصل إلى الغرفة حيث تجتمع العائلة،

والعائلة أعني بها أمي وخالتي وسلوى ابنتها؛ فبعد وفاة أبي منذ سنوات طوال، انقطعت كل العلاقات ما عدا علاقة أمي بخالتي، أختها الوحيدة؛ فهي آخر ما تبقى لها من عائلتها. أتلقى الثناء على مظهري وشعري من سلوى. أكتفي بالإجابة بابتسامة صامتة تخفي عدم اقتناعي، وأتأرجح بين الامتنان لمحاولتها رفع معنوياتي، والغضب لظنها أني فعلًا سأصدق هذه المجاملات الساذجة.

يبدأ الغناء فورًا قبل أن تذوب طبقة الكريمة وتُفسِد مظهر الكيكة «سنة حلوة يا جميل...» وأصفق معهن وأنا لا أسمع الأغنية تمامًا لأن صوت أفكاري يطغى عليها، ولأن سرسعة ثلاثة أصوات نسائية تجعل الكلام غير واضح أصلًا، لكن المهم أن ثمة أغنية، وأمنيات طيبة.

أمنيتي لهذا العام بسيطة للغاية: أتمنى لو أستطيع تجاوز تصوراتي القديمة عن نفسي. من آن إلى آخر، أقنع نفسي أني قد تجاوزتها بالفعل، أنت الآن سيدة ناضجة تخطت الثلاثين، وقد ترتبت حياتها بالفعل كموظفة حكومية في «القطاع الطبي». لم تصبح كاتبة، ولا شاعرة، وبالتأكيد من المستحيل أن تكون باليرينا بهذه اللياقة المعدومة. وفي هذا العام أيضًا أتمنى أن أتقبل أن أصابع يدي أصابع مصرية أصيلة؛ فهي ليست رقيقة ولا مسحوبة، وليس ثمة أمل في أن تصبح كذلك، وكذلك أني لن يلائمني أبدًا وصف «تمشي على العشب فلا ينثني منه عودًا واحدًا»، بل ينثني طبعًا، وربما يعاني؛ لأن ثمة بعض الكيلوات الزائدة التي أكافح لخسارتها من حين إلى آخر، ومعركتي ضد جسمي صعبة لأنها تتأثر بعواطفي وقلقي واكتئابي. لكني ما زلت قادرة على الحب رغم كل شيء، ولم أفقد روح الدعابة

رغم كوني أصبحت أكثر عصبية بحكم الضغوط واضطرابات النوم.

عليّ أيضًا تقبُّل أني أعيش في بلد يقتله التضخم وانخفاض قيمة العملة، فمن ثم حلم مشاهدة بلاد العالم جميعها... آاا... يمكنك إلقاء نظرة على سعر الدولار. أما في ما يخص قصة الحب الأسطورية الجامحة، التي عشت عمري في انتظارها، فقد عشتها بالفعل، لكنها بُتِرت بقسوة. أنا الآن متزوجة بمهندس محترم أعشقه، صحيح أنه لم يستطع القدوم لعيد ميلادي، للعام الثالث على التوالي، لكنه لم يختر هذا. وأمنيتي الثانية أبسط من الأولى: أن يعود، أن أشم رائحته ثانية وأسمع صوته في منزلي. الحمد لله أنه حي طبعًا وبصحة جيدة، لكنه ليس معي؛ لأن كل شيء ناقص كالعادة. لديّ نظريًا الحد الأدنى من الأشياء الجيدة، لكنها لا يمكن أن تكون أحلام طفولة أي شخص.

– بتتمني أمنية؟

– أيوه.

لكن المشكلة أن هذه الحكمة لا تتوفر لي دائمًا؛ ففي أوقات أخرى، أشعر بأطياف صورتي القدية عن نفسي تُحكِم قبضتها حول رقبتي حتى الاختناق، أسمع صوت سريان دمي في عروقي وأشعر بقلبي وهو يود لو يقفز من مكانه من فرط الغضب. أتحرك ذهابًا وإيابًا أملًا في التخفيف من الغضب المفاجئ، غضب مَن أدرك لتوه الحقيقة ويرفض تصديقها، غضب مَن عاد لتوه إلى المربع صفر وما زال في مرحلة الإنكار. يتحول الغضب أحيانًا إلى خطط طموحة مفاجئة؛ فالوقت لم يتأخر بعد. سأترك كل ما أفعله وأتفرغ للأحلام القديمة،

سأبدأ من الغد، فورًا، سأستقيل من وزارة الصحة وأتفرغ لكتابة الشعر، وسأبدأ في حمية غذائية قاسية أصل بها إلى الوزن المثالي في شهور قليلة، وفور أن أصل إليه، سأبدأ في تعلُّم الباليه في أكاديمية الكبار التي لمحت إعلانها من فترة، ربما سأبيع سيارتي وأسافر بثمنها دولتين أو ثلاثًا.

ثم يأتي الغد، وأهدأ، و«أحسبها بالعقل»، لأكتشف صعوبة تنفيذ مخططات نوبة غضب الليلة السابقة؛ فهي تحتاج إلى شجاعة ليست عندي، كما أن ثمة حياة والتزامات، وثمة عواقب لكل قرار وثمنًا سيُدفَع، وثمة دائمًا سن لبداية الأشياء. اللعنة على من يقرأ الآن، ويقول في بلاهة «لا يكون الوقت متأخرا أبدًا لتبدأ» أو «it is never too late».

أحببت هذه الجملة قديمًا، وكنت أُبشِّر بها في بداية العشرينيات، وهذا منطقي؛ فحين تكون في هذه السن يبدو كل شيء سهلًا وينتظرك لتفعله. من السهل أن تقول إن الوقت لا يتأخر أبدًا؛ لأنك في بدايته بالفعل.

أما حين يتأخر الوقت وتكتشف مدى سخافة هذه الجملة ومحدوديتها، ويكون من الحماقة الاستمرار في تصديقها، فحتى لو أردت العمل «كول سنتر» فثمة سن محددة للبداية. الكل يريد شبابك وحيويتك وقدرتك على التحمل التي تقل بمرور السن، والكل أيضًا يستفيد من سذاجتك وأحلامك الغضة التي تتحمل في سبيل تحقيقها كثيرًا من الهراء الذي لا تتحمله حين تكبر ويفوت أوانها وتدرك استحالتها.

كما أن بعض التصرفات الجامحة وردود الأفعال غير المحسوبة تنتهي صلاحيتها برؤيتك الرقم ثلاثة في خانة العشرات، وسيكون شكلك سخيفًا متصابيًا إذا فعلتها كبيرًا. وثمة دوائر أغلقت على أصحابها بالفعل، وصداقات فات أوان عقدها. الحقيقة المرة هي أنك أحيانًا تكون قد تأخرت بالفعل، ومعرفتك بهذا ليست من قبيل اليأس أو الإحباط، بل هي مفيدة لتتوقف عن مقاتلة طواحين الهواء، أو مطاردة الأوهام. اختر التعبير الكليشيه المناسب الذي يرضيك، المهم أن تتجاوز تصوراتك القديمة الحالمة. دعها تذهب. أتمنى أن تذهب عني كل صورة قديمة لنفسي، وأن أتجاوز جثث أحلامي.

– مش هتتكرمي وتطفي الشمع؟ معقول كل الوقت دا بتتمني أمنية؟!

– أمنية طويلة شوية معلش.

قلتها وأنا أبتسم وأنظر إلى الكيكة المنزلية الطيبة المغطاة بالـ«كريم شانتيه» التي صنعتها أمي –رغم مرضها– كمفاجأة لي في عيد ميلادي.

– كل سنة وإنتِ طيبة يا حبيبتي.

تقولها وألمح نظرة شفقة في عينيها.

– وإنتِ طيبة يا ماما.

أخيرًا أطفأت الشمع، وعانقتها وأنا أبتسم. وددت لو أسألها: هل تراني ناجحة؟ هل هي راضية عني؟ هل كان هذا تصوُّرها عني

بينما كانت تحملني في أحشائها؟ لكن لا أحد يحب أن يسمع من ابنته الثلاثينية هذه الأسئلة في ذكرى ميلادها بالطبع، ولا في أي يوم آخر. حتى هذه الأسئلة لها مرحلة معينة، تنتهي بانتهاء مرحلة المراهقة. تناولت القطعة الأكبر من الكيكة؛ لأني صاحبة اليوم، وأثنيت على مجهود أمي، وتظاهرت أني امرأة تكبر، وتعرف ما تفعل.

الحكاية الثانية:

ليلة تعطُّل التكييف

«تحكيها الفتاة التي تحلم أن يبقى قلبها على طول الزمن أخضر»

بحلم كأني ربطت السلسة في مركب

بحلم كأني بعيط زي باقي الخلق

الشمس في المغربية ولا سقف الحلق

– فؤاد حداد

تشير عقارب النسخة المقلدة من الساعة الـ«رولكس» الذهبية في يدي إلى الرابعة فجرًا، ولا يوجد في الشارع سوى مشرد مستغرق في النوم، ترقد بجواره قطة تبدو عليها التعاسة مثله تمامًا، بينما يعبر الشارع الواسع فأر صغير خاف مني أكثر مما خفت منه، فجرى ليختفي تحت سيارة ما.

أقف في توتر باحثة عن تاكسي لأذهب إلى صديقتي، لسبب يبدو أنه شديد الأهمية، وإلا لما اضطُرِرت إلى النزول في هذا الوقت، لكني لا أذكر ماهية السبب رغم اجتهادي في ذلك. بدأت أشعر بألم مزعج في قدمي، أظن أن سببه الكعب العالي، ونظرت في واجهة متجر مغلق في الناحية الأخرى من الشارع لأجد صورتي تحدق فيّ بدورها، وألاحظ أنني أرتدي فستانًا طويلًا لامعًا ينتهي قبل كعب الحذاء بالضبط، وأضع مكياجًا كاملًا على غير عادتي. متى فعلت كل هذا؟ هل أنا قادمة من فرح أو حفل خطوبة؟ وكيف لا أذكر هذا؟

ولماذا أقف أمام منزلي وليس أمام قاعة أفراح مثلًا؟ فتحت حقيبة يدي بحثًا عن الهاتف أملًا في أن يهديني إجابات. نظرت في الشاشة المظلمة التي لا تستجيب لمحاولاتي لتضيء، فخمنت أن الهاتف غير مشحون للأسف ربما لأني أنهيت شحنه كله على مدار السهرة. هل امتدت السهرة في عيد ميلاد ابنة الخالة إلى هذا الحد؟ لا أذكر أني كنت أرتدي هذا الفستان في الحفل، ولو كان الأمر كذلك لكانت أمي برفقتي الآن.

النتيجة أنه لا يوجد أمامي الآن فرصة للبحث عن سيارة بأي طريقة، وليس بيدي سوى أن أتمنى أن تقود معجزة ما تاكسي أبيض إلى هذا الشارع الهادئ في هذا الوقت.

تمر عدة دقائق من الانتظار المتوتر المؤلم بفعل الكعب والمقدمة الضيقة للحذاء اللامع التي تضغط أصابعي بلا رحمة، وأنا أنظر في كل الاتجاهات تحسبًا لأي مفاجأة غير سارة، وأملًا في رؤية أي مصباح سيارة قادمة من بعيد. قررت خلع الحذاء والوقوف حافية لأن من الواضح أن الانتظار سيطول. وقبل أن أنفذ قراري، لمحت سيارة مسرعة تدخل الشارع، وتقف أمامي مباشرة دون طلب. تاكسي قديم الطراز غريب المنظر، لا أرى سائقه. أدقق النظر داخله في حذر قبل أن أقرر سأركب أم لا، وأنا مرتابة بسبب الوقوف المفاجئ؛ فثمة احتمالية لا بأس بها أن يكون السائق مدمنًا أو قاتلًا متسلسلًا. أضيّق عينيّ لأرى جيدًا، وكأني سأعرف من وجهه مثلًا أو كأني أملك رفاهية الاختيار أصلًا.

لحسن الحظ، أجد أن السائق فتاة، وهو شيء غريب بالنسبة إلى

تاكسي عادي، وخصوصًا في هذا الوقت من الليل، لكني أطمئن، وأخبرها بوجهتي قبل الركوب، فتشير لي بالإيجاب بابتسامة وديعة تطمئنني أكثر، وأفتح باب التاكسي لأجده خاليًا تمامًا من الكراسي، ولونه من الداخل وردي كأنه فيلم باربي أو كأنه شخصية نسائية مكتوبة بواسطة رجل. تجلس فتاة أخرى في الخلف، يبدو أني لم ألاحظها بسبب الظلام وانعكاس مصابيح الشارع على شباك السيارة المغلق، لكن وجودها يجعلني أطمئن أكثر وأركب بجوارها، محاولة –من باب الأدب– إخفاء دهشتي من شكل التاكسي الغريب.

تبدأ السيارة –وليست الفتاة– بالتحرك، وأدور بعينيّ متأملة في تفاصيل السيارة الغريبة المطلية كلها من الداخل باللون الوردي، ولا يوجد فيها أي مقاعد، فقط وسادات أرضية وردية اللون أيضًا نجلس عليها، وأخرى لونها أبيض نستند إليها، ومصدر الإضاءة كرة صغيرة معلقة في سقف السيارة مثل تلك التي في صالات الرقص، تتغير ألوانها كل دقيقة بين الوردي والأزرق والأحمر، ورائحة السيارة كلها خليط من غزل البنات وبودرة الأطفال.

أي نوع من السائقات تفعل في سيارتها هذا؟! هل هذا مقلب من نوع ما أو إعلان عن منتج نسائي جديد؟ أبحث في كل الاتجاهات عن كاميرا خفية فلا أجد. ربما هو مجرد مزاج غريب لصاحبة السيارة.

بعد أن حفظت كل تفصيلة في السيارة، أدرت وجهي لأدقق في ملامح الجالسة إلى جواري. وجدتها تبادلني النظر كأنها تدقق هي أيضًا في وجهي، وهو ما أفزعني قليلًا، لكنها حضنتني فجأة في

دهشة عارمة مخلوطة بسعادة لا يمكن ألا ألاحظها وهي تهتف باسمي: «سلوى!»

أجفل من الحضن المفاجئ، وأتراجع لأرى وجهها أوضح.

– ما عرفتينيش ولا إيه؟!

تسأل وهي لا تزال محتفظة بملامح الدهشة والسعادة.

– هاجر!

قلتها، وحضنتها ثانية. صديقة الطفولة وبدايات المراهقة. مر أكثر من عشرين عامًا منذ آخر لقاء، وسافرت هي للدراسة في الخارج، ولم يكن الإنترنت قد انتشر وقتها بما يسمح ببقاء التواصل. ورغم محاولاتنا للحفاظ على الخيط الواصل بيننا عن طريق اللقاء في الإجازات القليلة التي تعود فيها إلى مصر، ظلت المحاولات تبهت حتى ماتت تمامًا بعد السنة الثالثة لسفرها، وهو ما يحدث مع كل مسافر تقريبًا بعد أن تنكمش مدة إجازاته بالتدريج ويطول الفرق بين كل إجازة والتي تليها، وحتى حين يعود، يكون من الصعب عليه اللحاق بكل التفاصيل التي فاتته، فيكون وجوده عابرًا مؤقتًا مقتصرًا على الأقارب والأهل.

تفرقنا كل هذا الوقت، وحين نلتقي يكون اللقاء في تاكسي غريب الشكل في الرابعة فجرًا. وبعد كثير من الترحاب وتبادل الذكريات البعيدة، تلح عليّ أن أذهب معها إلى بيتها لنشرب كوبًا من القهوة ونتحدث عن السنوات التي فاتتنا وفتناها. أتردد قليلًا وأنا أفكر في صديقتي الأخرى التي تنتظرني، ثم أقرر تجاهل موعدي والذهاب

مع صديقتي القديمة. أنا واثقة فعلًا من ترحابها الصادق، وسأعتذر للأخرى في ما بعد، كما أن «ساعة الحظ ما تتعوضش»؛ فأنا لا أعلم متى سأقابل هاجر ثانية، ربما سيتطلب الأمر عشرين عامًا أخرى.

نخبر سائقة التاكسي بالتعديل الذي طرأ على الخطة، وأن وجهتنا أصبحت واحدة. نصل سريعًا، وتصر هاجر على دفع الأجرة. تفتح حقيبتها وتُخرِج منها خريطة كبيرة مطوية وتعطيها للسائقة التي تشكرها، وتقرأ التساؤل في عينيّ، فتجيب: «هي محتاجة خريطة للطريق، هي اللي طلبتها.»

أمسكت بيدي وأخبرتني أن البيت في الشارع القادم، سنمشي فقط مئة متر. بعد دقيقة، أجد أننا قد وصلنا إلى بيت هاجر القديم نفسه، دون أي تغيير يُذكَر، كأن الزمن لم يمر. نصعد السلم القديم المتهالك، وتقترح عليّ الجلوس على سطح البناية –مكان جلستنا في الأيام الخوالي– بدلًا من الجلوس داخل البيت، فأوافق على الاقتراح دون تردد.

نصل أخيرًا إلى السطح، ونجلس معًا. تُخيِّرني بين القهوة والشاي، أختار القهوة؛ فهي أنسب للصباح الباكر. تغيب لدقائق وتعود بها. أشكرها وأشرب القهوة السيئة الصنع بينما أتظاهر أنها جيدة. نشاهد الشروق من موقعنا. أندهش من جمال المنظر والصعود التدريجي للشمس يلقي في قلبي شعورًا بالهيبة كأنها تصعد خصوصًا لي وحدي.

نتحدث قليلًا، وأسألها إذا ما كانت قد عادت إلى مصر أم أن هذه إجازة سريعة، فتجيبني أنها قد عادت فقط لمقابلتي، وأنها قادمة

من المطار لتوها. أتعجب كيف عرفت مكاني. هل كنت أنتظرها أصلًا ونسيت؟ قبل أن أسألها، تقاطعني لتخبرني أنها ستحضر شيئًا ما وتعود سريعًا. تغيب عني لدقائق، ثم تعود وهي تحمل شنطة جلدية صغيرة يعلوها التراب وقد تشقق بعض جلدها البني. تجلس القرفصاء بجانبي، وتفتح الشنطة، فيتناثر التراب في كل مكان. تعتذر بأنها لم تفتحها منذ سنوات طوال، وتُخرِج ألبومًا صغيرًا على غلافه رسم بدائي لشخصية «ميكي ماوس» يحمل كاميرا في يده. أذكر هذا الألبوم جيدًا، اشتريناه معًا من مكتبة عم عفيفي بجوار المدرسة، ووضعنا فيه أول صورة لنا معًا. تفتحه هاجر وهي تجاهد لإزالة التراب، وتخبرني أن أستعد لـ«فقرة الذكريات» كما سمتها هي.

نتصفح الصور ببطء لكن بحماس. صور فوتوغرافية صفراء متهالكة بطبيعة الحال، ولها رائحة الكتب القديمة، ما قبل عصر الديجتال، لكننا نذكر مناسبة كل صورة ونعيد حكايتها بالتفاصيل، ونتبادل التعليقات لنكمل المربعات الناقصة من الذكرى في رأس كل منا. صور لنا معًا، وصور لنا مع عائلاتنا، وصور لنا في المدرسة، وعلى البحر، وحتى على السطح حيث نجلس الآن، وأضحك حين تخبرني أن فساتيني القديمة في كل الصور جميلة.

تريني صورة أخيرة قائلة: «هذه هي أكثر صورة أحبها لك.» أُخرِج الصورة من الألبوم وأمسك بها في يدي، أمسح عنها التراب ببطء وأنظر إليها بدهشة. أرتدي في الصورة فستاني الصيفي القصير المفضل، الأحمر اللون بنقاط بيضاء صغيرة متناثرة بطول الفستان، وعلى كل كتف تقبع فيونكة متناهية الصغر، وفوق الصدر «كشكشة» بسيطة، ثم ينزل الفستان مكونًا دائرة كاملة تنتهي قبل ركبتي. كنت

أحبه وأرتديه كثيرًا؛ لخفته وقماشه القطني الذي يطير مع أبسط نسمة هواء، فتمنحني إحساسًا طفوليًا أني بطلة لفيلم ما، وأحبه أكثر كرامة للفيونكات الصغيرة. كنت أقف في الصورة مرتدية الفستان، ومستندة إلى عمود في الشارع، ويبدو أن الصورة التُقِطت فجرًا لأن الشارع خالٍ، وأميل قليلًا بجسد الطفلة الصغير ناحية المصور، وأشير بيدي اليمنى في اتجاه الكاميرا، لكن ملامح وجهي هي ملامحي الآن، وكأن رأسي قد رُكِّب على جسد طفلة. هل هذه الصورة مزيفة؟

أسألها: «صورة حقيقية؟» تضحك، وتؤكد أن هذه أنا وأني لم أتغير. أنظر إلى نفسي في مرآة بعيدة ظهرت فجأة أمامي فوق سطح البناية المجاورة لأجد أني أرتدي الفستان نفسه. ولا أفهم؛ كيف لم يتغير فستاني منذ الطفولة؟ أنظر في الساعة وأقرر أنني لن أذهب إلى صديقتي الأخرى اليوم قبل أن أفهم ما يحدث، وأنظر إلى فستاني ثانية مندهشة، وأنظر إلى هاجر في تساؤل، تُعقِّب هي بابتسامة هادئة: «أنا في الحقيقة عرفتك لما قابلتك لأن فستانك ما اتغيّرش.»

أستيقظ فزعة في نهاية جملة «فستانك ما اتغيّرش» وأنا غارقة في عرقي. انقطعت الكهرباء كالمعتاد في الأيام الأخيرة، وحين عادت، لم يعد معها التكييف إلى العمل على ما يبدو. ربما نقص الهواء في الغرفة هو السبب في هذا الحلم الغريب. أنظر إلى المرآة في الناحية المقابلة للفراش فلا أجد الفستان الأحمر طبعًا، بل «بيجامة» زرقاء عادية عليها رسم لأرنب سعيد يتناول جزرة وتتناثر حوله قلوب صغيرة. أقوم وقد عقدت العزم على البحث عن فستاني

القديم. لا أعلم ماذا سأفعل به، لكن سأجده على أي حال. وسأبحث أيضًا عن هاجر، ربما أجدها على فيسبوك كبداية، وأتمنى حين أجدها أن تخبرني أن «فستاني فعلًا ما اتغيّرش».

الحكاية الثالثة:

بين فنجانين

«تحكيها الفتاة التي تحاول مؤخرًا استعادة السيطرة على حياتها المبعثرة»

أنا بتلخبط

وما بتلخبطش

أنا صاحب رقة

وصاحب بطش

– فؤاد حداد

أضع علامة لبداية يومي بالقهوة، ونهايته بالكاموميل. أحافظ عليهما كطقس مقدس. ومع أن القهوة لا تكون دائمًا فعالة، وربما أحتاج إلى شرب كوبين أو ثلاثة أو أكثر لتستيقظ خلايا مخي العنيدة، ومع أن الكاموميل أيضًا لا يهدئني كما يُفترض به، حتى لو تناولت لترًا منه، مع كل ذلك أقاتل لأجل بقاء العادة، كأني لو تخليت عنها مرة فستختلط عليّ الأيام، وتذوب حتى تصبح كتلة واحدة، وأفقد التمييز بينها، كما يختلط عليّ كل شيء آخر في حياتي.

أفكر في هذا بينما أصنع القهوة. أفكر في أن يومي يمكن وصفه بأنه يقع «بين مشروبين»، وأن جودة اليوم معتمدة نوعًا ما على استيراد البن في مصر ومشكلاته، وهو شيء شديد الهشاشة لأستند إليه لو أردت رأيي، لهذا عادة أطلب كل هداياي من الخارج «قهوة»،

مع أن ثمة أشياء أكثر قيمة يمكن طلبها بالطبع، لكن في الحقيقة لا يمكنك المجازفة إذا تعلق الأمر ببداية يومك.

أصب القهوة على مرتين أو ثلاث؛ لضمان «الوِش المظبوط»، ولأن هذا يجعلني أبدو أمام نفسي محترفة تعرف ما تصنع. أفكر أنه إذا كانت القهوة لازمة لأستيقظ والكاموميل وأشياء أخرى لأنام، فالحمد لله على أن جسمي يؤدي بقية الوظائف الحيوية دون أي مساعدات. ما شاء الله، عاش والله.

أعيد الكنكة إلى مكانها على النار ثانية، وأنظر في الهاتف أملًا في أن يكون سامح قد أجاب على آخر رسالة أرسلتها. أعيد قراءتها ثانية:

«أظن بعد ٣ سنين حقي أعرف الخطوة اللي بعد كدا.

إحنا مش صغيرين، ٣٥ سنة مش صغيرة ومحتاجة أرتب كتير في حياتي.

فقول لي إنتَ فعلًا هتاخد خطوة جدية وهتقول لمراتك ونتجوز، ولا لأ؟»

أشعر أنه كان ينبغي أن أكون أكثر حزمًا، لكن لا بأس بها كبداية. هذه المرة أنا عازمة بصدق على امتلاك زمام حياتي، وموضوع سامح هو أول ما يجب حسمه. الرسالة وصلته منذ أمس. سأمهله حتى فنجان قهوة صباح الغد. لو لم يُجِب فسأعتبر أنه ينهي علاقتنا.

أجد طلب صداقة من «سلوى إسماعيل». أستغرق ثواني لأتذكر الاسم. سلوى! رفيقة الطفولة التي لم أقابلها منذ عشرين عامًا. ما

الذي ذكّرها بي؟ أقبل الطلب فورًا، لأجد رسالة منها «حلمت بك، كيف أنت؟»

غريبة! أخمن أن الحوار معها سيطول، لهذا أؤجل الرد إلى غد، لكن رسالتها أسعدتني على أي حال.

أصب آخر ما تبقى في الكنكة على مهل، وأغلق البوتاجاز. عمومًا أحب عملية تجهيز القهوة: الماء والبن على حرارة البوتاجاز الهادئة نسبيًا، ورائحة «الوِش» وشكله، ونقشة الفناجين، وطبعًا شرب القهوة نفسها. أحب تجهيزها؛ لأن وقتها من الأوقات النادرة في اليوم التي أشعر فيها أن كل الاحتمالات مفتوحة وواردة؛ ربما هذا أجمل فنجان قهوة سأصنعه في حياتي، أو ربما يكون هذا هو الفنجان السحري الذي سأنجز بعده كل العمل المتأخر، أو أكتب بعده نصًا مبهرًا أحلم به منذ عشر سنوات.

أفتح الجهاز الأسود الجاثم كالكابوس في منتصف غرفة المعيشة لأبدأ العمل بينما أشرب القهوة؛ لأني اليوم ليس لديّ الوقت لشربها على مهل، وأفكر أنه، في كثير من الأحيان، يكون وقت تجهيز القهوة، وخصوصًا لو كانت اسبرسو، الذي يستغرق عادة وقتًا أطول وخطوات أكثر، هو الوقت الوحيد في أثناء اليوم الذي تصنع فيه شيئًا لمزاجك الخاص، لهذا أتعمد –معظم الوقت– أن أختار أبطأ طريقة تسوية ممكنة لزيادة هذا الوقت، دعك من كونها أيضًا حجة رائعة لتسكين ضميرك؛ لماذا لا أعمل الآن؟ لماذا لا أنجز؟ لأني أجهز القهوة، وفور الانتهاء منها سأحل كل المشكلات، وأنهي كل العمل المتراكم.

أما وقت شرب القهوة –إذا حظيت بفرصة لأخصص وقتًا لشربها فقط– فأحبه لأنها «كيف وحيد» لا تلزمه المشاركة، ويمكنك أن تستمتع بها وحيدًا، على عكس الشاي مثلًا، الذي يلزمه رفيق و«قعدة حلوة».

أفتح الملف الذي أعمل على ترجمته، وأنا أشعر بالارهاق مقدمًا؛ فمع كوني أعمل من المنزل فإن هذا يجعل الأمر أصعب، فلو كنت أعمل من مقر الشركة فعلى الأقل ثمة وقت محدد للحضور والانصراف، أميز به وقت ومكان العمل عن بقية حياتي، أما العمل من المنزل فهو يعني أني في أي وقت سأعمل، وأن كل غرفة تحولت إلى مكان للعمل؛ فأحيانًا أعمل حتى من على الفراش أو في الشرفة مثلًا. فقدت فكرة البيت من حيث كونه مكانًا للراحة ووقتًا للراحة. يومي كله كتلة واحدة هلامية، يختلط وقت العمل بوقت الراحة بوقت تناول الطعام بلا أي فواصل. لا أعرف أين يبدأ كل شيء وينتهي، ولا أملك السيطرة على أوقات عملي، ولا على قلبي. وبمناسبة قلبي، فقد مرت أربع ساعات، وسامح لم يرد بعد، مع أني رأيته يعلق عند أحدهم، ما يعني أنه يحمل الهاتف في يده. هل يتجاهلني عن عمد أم يفكر في الإجابة؟

أظن أن الوقت الآن يسمح بكوب آخر من القهوة. لا أغلق الجهاز بحيث يبدو الأمر أني ما زلت متصلة وأعمل، وأتحرك إلى المطبخ، وأقرر في منتصف الطريق أن هذه المرة لن تكون القهوة تركية؛ فبعد أن قطعت شوطًا محترمًا في ترجمة الكتاب اليوم، أستحق ٢ شوت –معيارين كما يترجمها اللغويون– من الاسبرسو. أضع البن والماء في آلة صنع القهوة اليدوية فخر اختراع الطلاينة، وأشعل

أصغر عين من عيون البوتاجاز على أهدأ درجة. وبينما تُطهى القهوة على مهل، أجهز الثلج عن طريق الدق على القالب السيلكون الذي اشتريته خصوصًا ليُشكِّل الثلج على هيئة قلوب، أدق عليه بكل ما أملك من عزم ليلفظ مكعبات الثلج كلها؛ فالجو حار، وأُفضِّل تناول القهوة مثلجة في مثل هذه الأوقات. أضع الثلج في الكوب العملاق، وفي وعاء آخر، أضيف قليلًا من اللبن الذي أضربه بقوة بالمضرب المخصص لصنع طبقة من الفوم، طبقة صغيرة كافية لتكسر مرارة الاسبرسو ولا تغير طعمه. وحين أنتهي من تجهيز الثلج واللبن، تكون القهوة قد بدأت بالتدفق من فتحات الجهاز الصغير. أغلق النار، وأصبها فوق الثلج وفوقهما اللبن، وأنظر إلى الكوب العملاق في رضا عن إنجازي. كثير من الخطوات لصناعة كوب واحد، لكن النتيجة تستحق، وأحمله بفخر كأنه كأس العالم، وأتجه إلى الغرفة. أتناول الرشفة الأولى، وأضع الكوب على الطاولة بجوار الكمبيوتر، وأكتب ترجمة كلمة قفزت إلى ذهني قبل أن أنساها. وقبل أن أكمل كتابة الكلمة، وقبل أن أفهم ما يحدث أيضًا، كان كوعي بشكل ما قد اصطدم بالكوب العملاق ليقع كل ما فيه فوق لوحة المفاتيح، ثم يكمل الكوب طريقه خاويًا إلا من بعض قطع الثلج إلى الأرض، ليسقط بانفجار مربع، وتغطي قطع الزجاج الأرض كلها. قمت في ذعر للبحث عن أي شيء أجفف به لوحة المفاتيح وأنقذ ما يمكن إنقاذه. جففتها قدر المستطاع، وفصلت الكهرباء عن الجهاز، وتركت بقية المهمة للمروحة.

جلست على الأرض وسط الزجاج أحاول جمعه، أنظر إلى الجهاز، وإلى الزجاج المتناثر، وإلى يدي النازفة من أثر قطعة زجاج لم

ألاحظها، وأبكي، أبكي بكاءً مريرًا كأني قد فقدت كل شيء، بكاءً غاضبًا وعاجزًا، بكاءً عاليًا أقرب إلى الصراخ، وهو ما لم أفعله منذ كان عمري ست سنوات مثلًا. بكيت حتى أنهيت جمع كل الزجاج، وأنهيت كل ما أملك من الماء في جسمي حتى آخر قطرة. قمت من مكاني لأفرِغ الزجاج في كيس قماشي عملاق قبل أن ألقيه في القمامة، وغسلت يدي من الدم، ووضعت ضمادة صغيرة، وأمسكت الهاتف وأعدت قراءة آخر رسائلي لسامح، قبل أن أحذفها جميعًا، وأحظر رقمه، ثم أحظره في كل مكان آخر حتى على حساب تويتر الذي لا أستخدمه عادة، ونظرت إلى الرقم مرة أخيرة، قبل أن أمحوه تمامًا.

ظللت أنظر إلى الشاشة بعد محو الرقم وأفكر في ما فعلت، قبل أن أفطن أنني –نظريًا– في وقت العمل وما زال لديّ الكثير. عدت إلى العمل؛ لأنني لا أملك رفاهية التفرغ لمشاعر الأسى الآن. وعلى عكس المتوقع، كانت هذه من أكثر المرات التي أكون فيها راضية تمامًا عن نتيجة عملي، ولا أجد صعوبة في اختيار الكلمات ولا التفكير فيها، كأن قرار الخلاص من سامح أفرغ مساحة في عقلي للتركيز في الأمور الأخرى.

لم أتوقف عن العمل حتى وقت متأخر من الليل؛ فكل من يعمل بمهنة لها علاقة بالأفكار والكتابة يعلم جيدًا أنه من الحماقة قطع الأوقات المباركة التي تتدفق فيها الكلمات دون مجهود يُذكَر، فأنت لا تعلم متى ستتكرر ثانية.

أنهيت العمل، ونظرت إلى ما أنجزته في رضا، وقررت أن هذا هو

الوقت المناسب لإنهاء هذا اليوم، ولا أجد لديّ طاقة تكفي للرد على سلوى. ربما سأفعل غدًا، أما الآن فأستحق مشروب نهاية اليوم الذي يليق بالمساء: الكاموميل. دقيقة واحدة يغلي فيها الماء في الغلاية الكهربائية لأصبه في الكوب، وأسرع به إلى غرفة النوم خوفًا من أن يطير النوم لو تأخرت. ستكون هذه آخر خطوة في اليوم. أهدئ نور الغرفة وأشربه ببطء وهدوء، وأتجنب أي حركة من المحتمل أن تطرد النوم؛ لأني أعلم أن وقتها سأطارده بقية الليلة بلا أمل.

وبعد كوب الكاموميل، أفك شعري قبل النوم، رغم تحذير كل أطباء الشعر وخبراء العناية به، وتعليمات مثل: لفيه، احفظيه، اخنقيه بقماشة ناعمة، إلخ، فإن فكه هو تصرُّف آخر يُشعِرني بالسيطرة. بعد يوم من الإنهاك الطويل، يمثل كل شيء حملًا ثقيلًا حتى ربط الشعر، وهو ما يُشعِرني بالتحرر ولو لدقائق قليلة، على أمل أن أسيطر يومًا على ما هو أكبر من شعري، وأتحرر مما هو أثقل من ربطة شعر.

الحكاية الرابعة:

خمس نجوم

«يحكيها الطيار رقم ١٢٣»

صاحب مواجع

وفي قلبي ساعة مأخّرة

فالح أغني، وغصب عني

فالح في قولة يا هل ترى

– فؤاد حداد

أستلم الطلب السادس لهذا الصباح.

يمكنك أن تراني وأنا أفعل من مسافة بعيدة، وذلك بفضل السترة الصفراء المضيئة التي أرتديها، وتقبع على ظهرها العلامة المميزة لتطبيق توصيل الطلبات الأشهر. صحيح أن لونها قد بهت من الشمس والغسيل، لكن لا يزال من الممكن رؤيتها بوضوح. أحمل في يدي اليمنى الهاتف وفي يدي الأخرى أحمل الكيس الورقي، مستمعًا لتعليمات «صلاح» الكاشير، وتكراره الذي لا يمل منه أبدًا أن الطلب يحتوي على قهوة لأحمله بحذر، وهو شيء بديهي لا يتطلب التنويه؛ لأني أستلم الطلب بالفعل من مكان لصنع القهوة، لكنه يحب التأكيد. أطمئنه بابتسامة على مصير القهوة، وأنصرف مسرعًا لكيلا يحتسبها التطبيق تأخيرًا.

أحب طلبات الفترة الصباحية؛ لأنها عادة ما تكون قهوة أو طلبات خفيفة من تلك التي لا تأخذ وقتًا في التحضير فأُضطَر إلى انتظارها طويلًا، ولا يوجد فيها صلصة ولا زيوت كثيرة فهي ليست معرضة للتلف السريع من الحر أو البرد، وتكون الطرق في الصباح أقل ازدحامًا والشوارع أكثر هدوءًا، بما يسمح بتوصيلي الطلب دون أي تأخير. من ثم هي فترة قليلة المشكلات، وبالتبعية خصوماتها قليلة، وأكبر خطر فيها ربما هو أن تنسكب القهوة، وهو ما لا يحدث عادة والحمد لله، ليس فقط لأنني «طيار» ماهر، وهي حقيقة بكل تواضع، بل أيضًا لأن المنطقة التي أغطيها –التجمع الخامس– تحتوي على كثير من الأماكن التي تقدم القهوة التي يتخطى سعرها ستين جنيهًا على أقل تقدير، لهذا يكون العاملون في هذه الأماكن أكثر حرصًا على تغليف محكم يليق بالعملاء الذين ينفقون هذا المبلغ يوميًا على قهوة، وهو ما يريحني بالطبع ويجعلني أقل توترًا في أثناء القيادة.

كما أن ثمة سببًا آخر مهمًا لحب الفترة الصباحية، وهو أن معظم العملاء صباحًا لا يكونون على درجة غضب الظهيرة والليل نفسها. أظن أن هذا يرجع إلى كونهم يبدؤون اليوم على أمل أن يكون يومًا أفضل من كل الأيام السابقة، وهذا يجعلهم أرق طبعًا، وأكثر كرمًا في ما يتعلق بالبقشيش، لعل يومهم يكون كريمًا معهم هو الآخر. أما في نهاية اليوم فالأغلب يكونون قد اكتشفوا الحقيقة، وهي أنه كان يومًا عاديًا كسائر الأيام، طويلًا ومرهقًا وصارعوا فيه كل شيء للنجاة، مجرد النجاة، وطبعًا تكون ساعات اليوم والصراع باختلاف صوره قد حملتهم بالغضب والمرارة، وقتها ستصبح أي مشكلة تواجههم في طعامهم بمنزلة الوسادة الرملية لتفريغ غضب اليوم.

وعادة ما تتوزع جرعة الغضب؛ فأنا أتلقى جزءًا لا بأس به منها، وزملائي في خدمة العملاء يتلقون البقية. والأسوأ أن طالبي الطعام في الأوقات المتأخرة يكونون قد أنفقوا كثيرًا من المال بالفعل على مدار اليوم، بداية من أجرة السايس وصولًا إلى وضع البنزين في سياراتهم، فيكون البقشيش شحيحًا.

وعلى ذكر البقشيش، ما زلت أستشعر بعض الحرج حين أسمع «خلي الباقي عشانك»، ويتضاعف الحرج لو كانت من شاب في سني، ويتضاعف أكثر لو كانت من فتاة في سني أو أصغر. لا يصل بي الحرج إلى درجة رفضه بالطبع؛ لأنني أعتمد عليه بالأساس. في الحقيقة، كنت أرفضه في البداية في إصرار، ثم اكتشفت أن الأمور لن تسير من دونه، وأن الراتب أصلًا محسوب فيه البقشيش ضمنيًا.

أعرف طبعًا وأحفظ عن ظهر قلب الردود المحفوظة إياها من نوعية «لماذا الحرج وهي وظيفة حلال؟» إلخ إلخ، والإجابة بسيطة ومحفوظة هي الأخرى: الحرج لأني خريج جامعة، خريج كلية التجارة بتقدير جيد جدًا، وفي سيناريو آخر خيالي، ربما كنت موظفًا في بنك أو محاسبًا في شركة كبيرة، لكن عدة عوامل بيئية واجتماعية –أنت تفهم– صعّبت هذا الأمر، فأصبحت عامل التوصيل؛ لهذا أستشعر الحرج، خصوصًا لو كنت في طريقي لتوصيل طلب، مثل هذا الذي استلمته للتو، إلى تلك الفتاة الجميلة، «سلوى» –عرفت اسمها من التطبيق– التي تستلم الطلب وقد استيقظت من النوم لتوها بشعر معقود على هيئة ذيل حصان بلا عناية، لكنها جميلة رغم هذا. ربما في سياق آخر كنت سأقع في حبها وتقع في حبي، لكن مجرد مد يدها بالبقشيش يذكرني بالواقع؛

بالنسبة إليها أنت عامل التوصيل المسكين الذي تعطف عليه، كما أن مظهرها البسيط الذي أحبه نفسه يحمل نوعًا مبطنًا من الإهانة؛ هي لا تتعامل معي كرجل مثل الذين تقابلهم يوميًا، فهي لن تسمح لهم برؤيتها أبدًا بالبيجامة الزرقاء المرسوم عليها أرنب سعيد يعبث بجزرته بينما تتناثر حوله بعض القلوب، وهي المفضلة لها على ما يبدو، ودون أي نوع من أنواع الزينة، لكنها تسمح لي.

– اتفضّلي يا فندم.

أمد يدي بالطلب وأنا حريص على تقليل التواصل البصري قدر الإمكان لنفي أي اتهام بالتحرش.

تستلم الطلب وتشكرني، وتغيب ثواني ثم تعود بثمن الطلب. أعُدُّ سريعًا.

– كدا ليكِ باقي حضرتك.

– خلّيه عشانك.

تقولها بابتسامة متحفظة.

– شكرًا يا فندم.

أقولها وأنا أنزل السلم في سرعة للحاق بالطلب الجديد.

هذا هو أقصى تواصل قد يُتاح لي مع هذه الفتاة الجميلة ذات البيجامة الزرقاء، عاشقة الكرواسون والكابتشينو «حجم صغير».

على كل حال، ليست هذه بالضبط أكبر مشكلاتي، مشكلتي هي أنك الآن تشعر بالملل؛ لأن سردية «أنا ابن ناس والله لكنها الظروف»

تسمعها ألف مرة في اليوم، من سائق التاكسي، وكابتن «أوبر»، والصنايعي، وعامل التوصيل بالطبع، لكن المشكلة أنها حقيقية. بالنسبة إليك هي حكاية محروقة، لكن بالنسبة إليّ هي ما أسعى إلى إثباته طول الوقت؛ ليس لأني أحب ذلك، ولكن من باب الدفاع عن نفسي؛ لأن وظيفتي تحمل اتهامًا ضمنيًا: ربما أنت سارق بيوت، وربما أنت مثل هذه القصة من فيسبوك: تضع منومًا في الطعام للناس وتنتظر حتى يناموا لتقتحم منزلهم، أو حتى ربما تأكل من الطعام قبل توصيله ثم تضعه في مكانه بحيث يبدو وكأنك لم تفعل، وأي خطأ في الطلب فاستهتارك هو المسؤول بالطبع، وأي رد فعل عنيف ولو قليل منك فهو لأنك عامل توصيل بلطجي. ولهذا طول الوقت أحرص على التعامل بأدب مبالغ فيه، حتى لو كان العميل ابن ستين في سبعين؛ لأنني في موضع اتهام قبل أن يراني حتى، وعليّ أن أثبت العكس.

ونتيجة لذلك، دائمًا كل التقييمات لأي طلب أوصله تحتوي على شكر لي وخمس نجوم في خانة تقييم التوصيل. وعلى عكس المتوقع، هذا لا يسعدني كثيرًا، بل أشعر أنه تأكيد بشكل ما لكوني متهمًا ضمنيًا، وأن هذا التقييم هو بمنزلة مكافأة لي لأني «عكس الشائع»، ولأني نجحت في الامتحان هذه المرة، وأثبت أني لست وضيعًا ولا سارقًا ولا متحرشًا ولا مهملًا كما هو متوقع من أمثالي.

بعد أن أنهيت تسليم طلب فتاة البيجامة الزرقاء، كنت أقود الدراجة النارية محملًا بالطلبات الأخرى. ولأن الطريق حارة واحدة، وقد قرر سائق نيسان صني رصاصي الوقوف في منتصف شارع مزدحم دون حراك وقت خروج طلبة المدارس، اضطُررت إلى

الاقتراب من الرصيف قليلًا محاولًا العبور لأوفر وقتًا، وطبعًا مع الاقتراب من الرصيف، اضطُررت إلى تقليل سرعتي، مما جعلني أقترب قليلًا من فتاة تمشي وحيدة على الرصيف، ولاحظت خطوتها التي أصبحت أسرع بوضوح، ويدها التي تمسكت بحقيبة يدها بإحكام أكثر. بالطبع حدث هذا لأنها سمعت صوت «المكنة» فأخذت احتياطها، سارق شنط؟ هذا بالضبط الاتهام الذي كان ينقصني. كيف سأثبت أني بريء منه؟ أظن أنه لا طريقة إثبات هذه المرة، أو ربما ثمة طريقة لكني لا أملك الوقت للتفكير فيها. فلتظن ما تشاء، أما الآن فقد أفرغت انفعالي في سائق السيارة مطالبًا إياه بالتحرك لأن «ورانا مصالح». لم يرد، ونظر إليّ في صمت، ثم انطلق بأقصى سرعة. هل معنى نظرته أنه يتهمني بشيء هو الآخر؟ فليذهب إلى حيث ألقت.

صدقني، تصبح تجربة الحياة أصعب مع شعورك بأنك متهم محتمل في كل وقت، حتى حق الغضب الطبيعي لأي إنسان تُحرَم منه لأنك تخشى أن تؤكد الاتهام. ولعل كلامي يوحي لك بـ«الحقد الطبقي»، وستكلمني الآن عن صعوبة حياة الجميع والـ٢٤ قيراط، لكني أؤكد لك أني أعرف كل هذا وأقرؤه كل يوم في كل مكان، وأعرف أنني محظوظ بالنسبة إلى البعض؛ فأنا أمتلك دراجتي النارية الخاصة، الخالصة الثمن، ولا أعمل لأسدد الأقساط، وأعمل في منطقة ممهدة الشوارع مع نوعية عملاء ينتمي أغلبهم إلى الطبقة المتوسطة العليا، وهو ما يجعلني موضع حسد من زملاء المهنة بالطبع، لكن أنا فقط أفكر بصوت عالٍ، ولست حقودًا، بل اعتدت التفكر لتمضية الوقت في أثناء انتظار الطلبات وتوصيلها؛ إذ

لا يوجد شيء آخر لتفعله غير التفكر في أيامك وموقعك من العالم، ولا يعني هذا بالضرورة كوني ساخطًا أو غاضبًا أو مليئًا بالحقد الطبقي، أنا أتأمل لا أكثر.

وها أنا في نهاية الأمر انتهى بي المطاف وأنا أنفي عن نفسي اتهامًا آخر جديدًا بالحقد، لكن لا وقت عندي لمناقشة هذا الاتهام أيضًا أكثر من هذا؛ لأن شاشة هاتفي تنبئني بطلب جديد يبدو أنه إفطار متأخر أو غداء مبكر، ولا يجب أن أتأخر، وإلا ربما سينخفض تقييمي، ومن أنا دون الـ«خمس نجوم»؟

الحكاية الخامسة:

الأحزان السرية لطبيبك الخاص

«تحكيها السيدة التي تزن ٨٥ كيلوجرامًا تجاهد دائمًا لفقدان بعضها، لكنها –على أي حال– نجحت في جعل الجميع يفقد الوزن»

زي أعمي يحس لما يجس

ألقى نفسي ولا أشوف نفسي

ألبس التوب اللي مش توبي

– فؤاد حداد

«أخصائية التغذية والسمنة والنحافة»

أنظر إلى الاسم المضيء على اللافتة، وأنظر إلى نفسي في مرآة السيارة. أمزح مع صديقتي ساخرة من نفسي في قسوة معتادة: «بذمتك دي خدود أخصائية سمنة ونحافة؟» تنهرني –كعادتها أيضًا– مطالبة إياي بأن أكف عن «التلطيش» لنفسي، وأن ثمة من هم أكثر مني وزنًا وثقتهم بأنفسهم لا حد لها، منهية كلامها بـ«والله قمر»، بينما ننتظر ابنتها الصغرى طالبة الثانوية العامة أمام سنتر الدروس الشهير الذي يقع أمام عيادتي مباشرة.

هذه المرة كانت صديقتي موجودة لتسمِعني صوتًا آخر غير صوت نفسي، لكن معظم الوقت أكون وحيدة أمام المرآة تحت رحمة الصوت في رأسي، وقتها، أشعر بالاغتراب عن جسمي، كأني أحدق في واحدة أخرى لا أعرفها؛ ففكرتي عن نفسي أن وزني ٦٥

كيلوجرامًا، وأن عيني كانت تشغل مساحة في وجهي أكبر من ذلك بدلًا من أن تطغى عليها خدودي. أنسى صورتي الجديدة كثيرًا، إلى درجة أني أرتدي ملابسي القديمة وأندهش، وأغضب، وأبكي لأنها لم تعد تلائمني الآن؛ كيف حدث هذا؟

وفي أوقات أخرى أشعر بالغضب من نفسي؛ كيف تركت نفسي حتى وصلت إلى هذه المرحلة؟ لماذا أنا بهذا الفشل وانعدام الإرادة؟ لو كنت امتلكت قليلًا... قليلًا فقط من الإرادة في البداية، لما كنت الآن أحتاج إلى كثير منها لأعود كما كنت.

وقليلًا ما أشعر بالشفقة، «معلش»، أنت مررت بالكثير، ولم يكن هذا ليحدث لولا ليالي البكاء الطويلة الوحيدة المتبوعة بنوبة من الأكل العاطفي الغاضب الحزين. وأحاول ترديد ما أقوله للناس، «حلوة في كل الأحوال»، وأحاول التركيز على ما أعتقد أنه ما زال جميلًا فيّ رغم الوزن ومرور الزمن، وأخبر نفسي أنني ما زلت أنا، أنا لست شكلي فقط، وسأعود، حتى لو ببطء شديد، سأعود في يوم ما لأن صحتي أيضًا تأثرت؛ فلا يمكن أن تكمل حياتك بوزن زائد بعد المعاش، لم تعد مفاصلي قادرة على حمل أي كيلوات أخرى زائدة. أظل أردد أنني يجب أن أكف عن القسوة مع نفسي؛ فأنا أخاطب نفسي بعكس كل ما أطلب من الناس أن يقولوه لأنفسهم.

لكن هذا لا يطول، وأعود إلى الحزن والغضب أحيانًا؛ فأنا أقدر على التماس العذر للآخرين من قدرتي على التماسه لي. قال لي أحدهم مرة: «إن في هذا نوعًا من الغرور الخفي؛ أنت تظنين نفسك تخضعين لمعايير أعلى تحاكمي نفسك على أساسها، بينما أنت مثل

الآخرين، يسري عليك ما يسري عليهم.» ربما يكون هذا حقيقيًا، ربما أنا شخص مغرور ومنعدم الثقة في ذاته أيضًا، يمكن أن يجتمع الاثنان معًا، وربما لا. ربما هذه فلسفة أكثر من اللازم، لموقف بسيط، ومعاناة منتشرة.

بعد أن اخترت تخصص التغذية، حبًا فيه ورغبة في أن أساعد نفسي قبل الجميع، وعلى عكس المتوقع، وبالقدر نفسه الذي كنت أتعاطف به مع كل شخص أساعده ويمر بهذه التجربة، كنت أصبح أقسى مع نفسي. أصبح ثمة صوت داخلي جديد: «هذا شكل لا يليق بمن وظيفته و«أكل عيشه» مساعدة الناس ليصبحوا في الوزن المثالي.» كما أن ضميري أصبح عبئًا ثقيلًا هو الآخر؛ فأن تعرف أضرار كل نوع طعام وسعراته ليس كمن لا يعرف. وهو ضمير سخيف، لا يمنعني من الأكل، لكنه يقتلني بالذنب بعده.

خلال عملي في التغذية، أكثر كلمات الشكر تكون دائمًا على تفهُّمي، على صبري. أحيانًا يعاملني بعض المرضى كأنني أم لهم بشكل ما، وفي الحقيقة، حين أقول «أشعر بك»، تكون هذه هي الحقيقة؛ فأنا كنت –وما زلت– هناك، نحن نخوض المعركة نفسها. يتوقع الناس دائمًا من خبراتهم السابقة في المتابعة أن أقسو عليهم إذا خرجوا عن الخطة المقررة، لم أفعلها قط.

أحيانًا –لولا الاحترافية– حين يخبرني أحدهم «كنت حزينًا... أكلت كثيرًا»، أود لو أرد عليه «وأنا أيضًا».

على كل حال، حققت نتائج مُرضية جدًا مع الجميع، باستثناء نفسي؛ لسبب ما أجهله، أو أعلمه ولا أحب الاعتراف به. وضعني

هذا في ضغط دائم. كنت أتحاشى مقابلة الناس لأول مرة، هل سيحكمون عليّ؟ لا تُظهِر الصور الحقيقة كاملة. وكنت تحديدًا أرتبك عند مقابلة من نجحت معهم بالفعل «أون لاين». ورغم معرفتي المحدودة بالعالم الافتراضي فنتائجي مع الحالات لا بأس بها. هل لو قابلت أي حالة منهم في يوم ما فسيكون أول تعليق يقفز إلى ذهنهم هو «هي دي اللي ساعدتنا نخس؟ مش بتساعد نفسها ليه؟»؟

أما من أقابلهم دون سابق معرفة فكنت أحمل همّ كيف سأعرّف نفسي؛ فبمجرد إجابتي عن سؤال الوظيفة، أُقيّم في التو واللحظة بناءً على شكلي وجسمي، وهما آخر شيئين أحب أن أُقيّم على أساسهما، سواء كان التقييم سلبيًا أو إيجابيًا.

بالأمس، زرت طبيب عيون جديدًا؛ فتجديد النظارة ليس برفاهية في سني هذا. رجل سبعيني من نوعية أساتذة الجامعة الذين لا تحب أن تقابلهم في امتحان الشفوي أبدًا، أعرفه بحكم الزمالة، صحيح أنه أكبر مني بعشر سنوات، لكن يمكن اعتباره زميلًا حتى ولو كنت لا أحبه. سألني عن وظيفتي –يبدو أنه لا يعرفني كما أعرفه– فأخبرته، لينظر إليّ من فوق إلى تحت ثم يقول: «مش باين.» يتغير وجهي فيكمل: «ما تزعليش، بس أصل لا خلّفتي ولا حملتي ووزنك زاد كدا، وفي سنك غلط.» أختنق بإحساس الإهانة والغضب وينتهي الكشف. أبكي فور الخروج من الغرفة، وأظل أيامًا ألوم نفسي على انعقاد لساني وعدم الرد بـ«وإنت مال أهلك؟» أقصى ما يمكنني عمله هو سبه في سري، طريقة عاجزة لرد الإهانة تليق بهشاشة الإنسان المعاصر، لا أملك سواها.

استيقظت اليوم محبطة، وما زلت أفكر في كلام الطبيب الكريه، مستلقية على الفراش في كسل لا أجد الطاقة لأبدأ اليوم. قررت فعل أسوأ شيء يمكن فعله في هذه الحالة. بدأت التقليب في الأبلكيشين الملعون في ملل. مئات الفيديوهات القصيرة التي تقضي على الانتباه نهائيًا وتحولك إلى ذبابة لا تكاد تقف على شيء حتى تطير ثانية. لعنة الله على مُساعِدتي التي أرشدتني إليه متعللة بأنه سيُسلّي وحدتي.

يقرر الألجوريزم أن يُغرِقني في فيديوهات زملاء التخصص الأصغر سنًا. «تعالوا معايا شوفوا يومي كأخصائية تغذية»، ثم تبدأ في تناول الإفطار بصوت يزعجني. «يلعن أبوكِ»، وأقلب الفيديو. الفيديو التالي «هقول لكم تخسوا إزاي من غير دايت»، ثم تبدأ في سرد خطوات هي بالضبط عبارة عن دايت. الفيديو التالي «إنتو عارفين إن الدايت مش حرمان؟» أتمتم: «يا كدابة يا بنت الكدابين»، وأنتقل إلى الفيديو التالي. الفيديو كان لـ«كوتش» تستعرض مؤخرتها المنحوتة في فخر، طبعًا ببراءة؛ لأنها فقط ترغب في إيصال رسالة أن الرياضة تغير حياتك. طبعًا يا آنسة كل من يشاهد الفيديو منبهر بـ«حياتك» المتغيرة إلى الأفضل فعلًا.

أفطن إلى مرور أربعين دقيقة من التصفح بلا هدف، وألاحظ أن غضبي من كل شيء قد تضاعف. أغلق التطبيق، والهاتف كله، وألقي به بعيدًا، وأنظر إلى الجزء الصغير من السماء الذي يظهر من فتحة الشباك المقابل للفراش. «سوق النخاسة»، تتردد الكلمة في رأسي دومًا بعد كل جولة مشابهة في هذا التطبيق أو غيره. كل شخص يعرض ما عنده، رغبة في مزيد من الشهرة ومن ثم المال:

«قرّب قرّب»، عروض، أحلام بالرشاقة أو الغنى أو غيرهما، عروض وخصومات، «ستوريز» بمعدل ١٠ في اليوم على الأقل، سأفعل أي شيء لبقاء «الريتش»، أي شيء للوصول. هل حدث هذا في أي وقت في تاريخ العالم؟ أحيانًا أتعجب: لماذا لا يجد الناس الأمر غريبًا؟ يعني هل فتح الكاميرا ٢٤ ساعة، تُصوِّر نفسك في العيادة، في المنزل وأنت تطهو، في الساحل، حتى في لحظاتك المميزة كعيد زواجك مثلًا، هل هذا أصبح أمرًا عاديًا لا يثير اندهاش أحد؟

أفكر، وأنا أنظر إلى الهاتف الملقى على الجانب الآخر من الفراش، أن أطباء الرعاية المركزة، رغم كل صعوبة عملهم، فثمة شيء من الحظ في أن يكون المريض لا يأتي إليك أبدًا برغبته. أنت غير مضطر إلى عمل دعاية أو فيديوهات رخيصة ولا إلى وضع صورتك متأنقًا على لافتة عملاقة في التجمع الخامس، المريض يأتي إليك وكل المطلوب منك هو مراعاة ضميرك. بالنسبة إليّ على الأقل هي صفقة رابحة.

أما في تخصصات مثل الجلدية والتغذية والتجميل –وهي التخصصات التي يأتي إليك المريض فيها بكامل إرادته– فمطلوب منك، في هذه الأيام تحديدًا، أن تدخل منافسة لا ترحم؛ فأنت لو أردت أن تكون شيئًا مهمًا في مجالك –حتى لو كان عندك علم حقيقي أو قيمة ما تقدمها فعلًا– فعليك التورط في المنافسة الحامية لتصل؛ لأن –ببساطة– كثرة المعروض تتطلب منك جهدًا أكبر وشيئًا مختلفًا لتقدمه. هذه هي قاعدة السوق في أي وقت وفي أي مجال، حتى لو تعلق هذا المجال بصحة الناس وحيواتهم وشكلهم. هذا عصر الصورة. يمكنك أن تُدخِل الكاميرا في المعادلة،

وستغيرها تمامًا بالطبع. كن جزءًا من عملية التسويق. على المريض أن يشتريك الأول قبل بضاعتك؛ يشتري الثقة، ويشتري الوعود بالبشرة الناعمة، والجسم المنحوت، تلك الوعود غير المنطوقة بأنه يمكنك أنت أيضًا أيها المشاهد أن تكون مثل هذا في يوم ما.

التقطت الهاتف ثانية وأنا عازمة على فعل ما أُحذِّر كل الناس منه طوال الوقت: سأطلب طعامًا. سأطلب كثيرًا من الطعام المليء بالسعرات والدهون المهدرجة وربما مسببات السرطان، لكنه سيلهيني لدقائق عن حزني من كلام الطبيب الكريه وعن غضبي من كل شيء، وأعد نفسي بالعودة إلى نظامي الصحي غدًا وإلى الأبد. أفتح التطبيق وأقلّب بين المطاعم، وأستقر أخيرًا على أكلتي الحزينة: برجر «كومبو» ومعه فطيرة تفاح. وأحاول تجاهل عدد السعرات الذي يقفز إلى رأسي رغمًا عني وأنا أؤكد في ملاحظات الطلب أن يكون الساندوتش دون بصل. تقفز رسالة في أعلى الشاشة من «ريم ٣ شهور»، ريم هو اسمها، و٣ شهور هي الباقة التي اختارتها للمتابعة. أفتح لأرى أول رسالة وهي ما زالت مستمرة في الكتابة:

«أنا بوّظت الدنيا في عيد ميلادي، بيتزا وبيبسي.»

«كنت مكتئبة جدًا، ٣٣ سنة مش قليل.»

«حاسة إني عمري ما هخس يا دكتورة.»

أتنفس بعمق وأتأكد أنها لا تكتب ثانية، ثم أبدأ الكتابة:

«ريم، صدقيني طبيعي تمامًا، كل شخص بدأ رحلة فقدان الوزن مر بالمرحلة الانتقالية، وأوقات بيعود لعاداته القديمة. الفيصل

إننا نستمر ونعود بعد الوقوع كأن شيئًا لم يحدث، ونسامح نفسنا ونرحمها. صدقيني حاسة بيكي تمامًا وبإن المخرَج من الحزن كان البيتزا. جهزي قائمة بدائل وقت الحزن تلجئي لها بدلًا من الطعام العاطفي، ومتأكدة إنك هتكملي، وكل سنة وإنتِ طيبة.»

كتبتها بصدق وأنا أعنيها. ضغطت إرسال، ثم أضفت قلبًا أحمر في رسالة أخرى ليصل إليها تعاطفي، ووددت لو أخبرها أنها لا تزال في بداية حياتها، لكن تراجعت تجنبًا للفهم الخاطئ. عدت إلى تطبيق طلب الطعام، وضغطت «تأكيد الطلب».

الحكاية السادسة:

وعدت من المعارك، وأنا أدري...

«يحكيها الرجل الذي هُزِم لتوه»

الدموع فيها الصرع والغل

راضي مش راضي الدموع بتذل

تشبه الشكوى لغير الله

– فؤاد حداد

أنا اليوم خسرت. وهو خبر عادي، متكرر، لا مفاجآت فيه، على الأقل في ما يخص حالتي. ربما تكون الخسارة حدثًا استثنائيًا صادمًا لبعض الناس، لكنها ليست كذلك بالنسبة إليّ. يمكن القول إني –نوعًا ما– قد اعتدت الأمر بالفعل، وحفظت ترتيب الخطوات التي تحدث دائمًا بعد كل خسارة، مهما كان حجمها.

ففي البداية، توجد تلك المشية، التي أسميتها «مشية الهزيمة». قد تبدو الهزيمة كلمة ثقيلة، لكنها حقيقية؛ فالحياة في النهاية مجموعة من المعارك الصغيرة: البحث عن عمل معركة، ورفضك في آخر خطوة قبل التعيين هو خسارة للمعركة، أما خسارتك لوظيفتك الحالية بالفعل فهي هزيمة أيضًا، لكنها هزيمة غدر، طعنة في ظهرك دون أن تقاتل، وذلك الامتحان الذي فشلت فيه، أو اليوم الذي خلعت فيه خطيبتك دبلتها معلنة عن انتهاء قصتكما، كل هذه هزائم.

وبالنسبة إليّ، بعد كل هزيمة، مهما كان حجمها، تتشابه كل طرق

العودة، وتلك المشية أيضا واحدة لا تتغير، أمشي مثل من تلقى ضربه لتوه على رأسه، فيكون توازني مختلًا، حرفيًا وليس مجازًا، لا أقدر على السير في خط مستقيم كأني سكران وما أنا بسكران، وتتكون سحابة خفيفة من دموع أمام عينيّ تجعل كل شيء مشوشًا، وأمر بعينيّ على الأشياء ولا أراها، فأُضطَر إلى النظر لمعالم الشارع، الذي أحفظه أصلًا، أكثر من مرة؛ لأعرف أين أنا.

أو ربما لأعرف من أنا؟ كل خسارة صغيرة أو كبيرة تعيد تعريفي لذاتي من جديد. كنت سأصبح شخصًا مختلفًا بالطبع لو حصلت على هذه الوظيفة التي فقدتها في اللحظة الأخيرة، أو تزوجت هذه الفتاة التي تركتني في اللحظة الأخيرة أيضًا. تحدث كل هزائمي في اللحظة الأخيرة، وهذا ما يجعلها أكثر مرارة، بعدما أكون قد خططت لكل شيء بالفعل. وبالتأكيد، بعد ضياع هذه الخطط، أحتاج إلى وقت لأكون الشخص الجديد الذي سيعرف نفسه بناءً على المتغيرات الجديدة.

أما عن قيادة السيارة وأنت مهزوم فعادة ما تكون على وضع الطيار الآلي، أو الحمار الذي يعرف طريق بيت صاحبه: أمسك بعجلة القيادة وأغرق في أفكار مظلمة لا أستيقظ منها إلا تحت بوابة المنزل، أو إذا سبني أحد السائقين، لكن، في كل مرة، أصل سالمًا بمعجزة ما، وأستغرق وقتًا أطول في ركن السيارة كأني مراهقة تتعلم القيادة. حتى فعل بسيط فعلته آلاف المرات مثل هذا يتطلب تركيزًا لا أملكه الآن. أتقدم بالسيارة وأتراجع، وأتقدم ثانية وأتراجع، وأدعو الله ألا يشاهدني أحد. أخيرًا، أقف بالسيارة، منحرفة ناحية اليمين قليلًا، لكن لا بأس، لا أملك الآن رفاهية أن أصفها باستقامة.

أغلق المحرك، وأضع رأسي على عجلة القيادة، وأفكر أنه لو رآني أحدهم الآن من بعيد فربما ظنني ميتًا. طبعًا لن أقول إن هذا ليس ببعيد عن الحقيقة لأنني ميت من الداخل. لو قلت هذا لكان تشبيهًا رديئًا جدًا لا أرتضيه لك عزيزي القارئ.

أظل على هذا الوضع مدة طويلة، ربما نصف ساعة، أفكر، وأتأكد من غلق شبابيك السيارة جيدًا، ثم أبدأ بالبكاء بينما ما زلت أدفن رأسي في عجلة القيادة. اعتدت على هذا منذ زمن؛ فالسيارة هي المكان الوحيد الذي يُسمَح لي فيه بالبكاء، كرجل ابن للطبقة المتوسطة ومن أصول ريفية. لو بكيت أمام أمي فسيتقطع قلبها حزنا وتنهار وتُغرِقني في الهستيريا وتُحمِّلني همًا آخر فوق همي. لو بكيت أمام أبي فسينهرني –حتى لو تعاطف معي– مطالبًا إياي كالعادة بأن «أسترجل». أما عن جلسات القهوة فلا يُسمَح فيها إلا بالسخرية الذكورية العنيفة، وأن أصوغ مشكلاتي في صورة نكتة أو إيفيه ألقيه على عجالة قبل أن ألتقط الشيشة بحيث أبدو غير مهتم. والوحيدة، التي ربما استطعت البكاء أمامها، لم تعد موجودة، فانتهى بي الأمر إلى اعتبار السيارة الكورولا القديمة حائط مبكاي، وهي ليست وظيفتها بالطبع، لكن ليس أمامي مكان آخر.

أنتهي من وصلة البكاء، أغسل وجهي ببقايا زجاجة الماء الملقاة في الدواسة وأجففه جيدًا، أتأكد في المرآة من كون وجهي يبدو طبيعيًا، لا أثر لشيء سوى بعض الاحمرار البسيط في عينيّ. ربما تظن أمي أني قد تعاطيت بعض الحشيش، لا بأس، هذا أهون من أن تعرف أن ابنها «الحيلة» كان يبكي في السيارة كالمراهقات. أصعد على السلم في تباطؤ، ويبدو الدور الثاني بعيدًا جدًا. أتمنى أن يكون

الجميع قد ناموا بالفعل، وأفتح الباب بهدوء لكيلا أوقظ أحدًا. ولكن، كما توقعت، ما زالت أمي تنتظرني. أقبّلها، وأرسم ابتسامة سمجة متظاهرًا بأن كل شيء على ما يُرام.

– عملت إيه في مقابلة الشغل الجديد؟

– الحمد لله يا أمي، في انتظار ردهم.

تنظر إليّ وتتجاهل إجابتي. تصمت قليلًا، ثم تتمتم وهي تقوم من مكانها:

– هحضّر لك الأكل.

تتحرك هي في اتجاه المطبخ، بينما أتحرك أنا في اتجاه الحمام الذي أدخله مسرعًا وأغلق الباب ورائي. أفكر وأنا أفك أزرار القميص: هل تعرف؟ هل تفكر الآن أن حظها في الحياة أن يكون ابنها خاسرًا؟ أحاول ضبط درجة حرارة الماء، هل ترجمت «في انتظار ردهم» إلى «لقد فشلت كالعادة يا أمي»؟ أدخل تحت الماء الدافئ وأنا أسمع صوت الراوي في الأفلام القديمة: «وها هو بطلنا المهزوم، الفاشل في العمل وفي الزواج وفي الحب، يدع الماء ينساب على جسده، طمعًا في أن يغسله من شعور الهزيمة والفشل. ولكن هيهات؛ فالماء لا يصل إلى القلب.» يدخل الصابون في عينيّ كالعادة بينما أتخيل الكاميرا تنتقل إلى المطبخ. ويستأنف الراوي: «وها هي أمه المسكينة، تقف لتعد له الطعام وهي تخفي دموعها وحسرتها على ابنها الفاشل القليل الحيلة. يا لها من سيدة عظيمة أنهكها الزمن وأتعبتها كثرة الخيبات، ولم تسعد في زواجها، ولا وجدت ما يسرها في ابنها أيضًا!»

يقطع الفيلم صوت أمي تستعجلني من وراء الباب حتى لا يفقد الطعام حرارته. وفي الحقيقة، حرارة الطعام هي آخر ما أهتم به الآن، لكن أطاوعها وأرتدي ملابسي وأخرج. نجلس على طاولة الطعام في صمت جنائزي.

– مش هتاكلي؟

– لا، سبقتك يا ضنايا، ألف هنا.

قالت «يا ضنايا»، إذن هي لست غاضبة مني، لكنها مشفقة عليّ. لا أعلم أيهما أسوأ، ثم لماذا تغضب مني؟ لا أعلم. لكن منذ الطفولة دائمًا أفترض كونها ستغضب مني بشكل ما. على كل حال، عزائي الآن أن صينية البطاطس، التي أتناولها، مبهرة إلى درجة أني أشعر أني لا أستحقها.

– تسلم إيدك يا ست الكل، البطاطس خطيرة.

– تعيش يا حبيبي، ربنا يفتحها في وِشك. مراتك هتطوّل عند أهلها؟ ما تصالحها يابني.

– ما تقلقيش يا أمي، هترجع، هي بس نادية بتحب تكبر المواضيع.

تصمت ولا تعقب.

أفكر في موضوع صالح للحديث لأكسر الصمت المربك. ولأنها على الأغلب طوال اليوم لم تتحدث مع أحد، أعني حديثًا حقيقيًا يتضمن تواصلًا صادقًا؛ فمطالبات أبي بالطعام أو شجاره لأجل الملابس لا

يمكن اعتبارها محادثة بالطبع، أجده –الموضوع لا أبي– أخيرًا. أعتدل في جلستي استعدادًا للحديث، وأتنفس عميقًا ليخرج صوتي قويًا لا يبدو فيه أثر الكسر.

– كلّمتي الحاجّة عزيزة في موضوع البوابة؟

تفهم هي أن هذا السؤال بمنزلة ضوء أخضر لتبدأ الحديث. تنطلق متحدثة عن مشكلة بوابة المنزل المكسورة، ومن سيتحمل تكلفة إصلاحها، وتحكي عن عناد الحاجّة عزيزة زوجة صاحب المنزل، وتتفرع من هذه النقطة إلى ذكر مشكلة ابن الحاجّة عزيزة مع زوجته التي يضربها «ضربة في إيده» كما قالت هي، ولا يحمل لها جميلًا رغم كونها تحتمل بخله وجلافته. أجاهد للحفاظ على تركيزي ومتابعة سير الكلام مع تعقُّد الأحداث والشخصيات، وأحاول أن أتفاعل بحماس مستنكرًا رد فعل الحاجّة عزيزة ودفاعها عن ابنها رغم كونه على باطل.

بعد ربع ساعة من الحديث، تنظر إليّ أمي وتبتسم:

– سهّرتك يابني، تصبح على خير.

– أبدًا يا ماما، الشوية دول باليوم كله.

تبتسم وتنطلق في الدعاء، وهي لا تعلم أني أعني ما قلته فعلًا، لسبب ما أجهله؛ فهذا الحديث المليء بمفردات بعيدة تمامًا عن عالمي القاسي أعاد إليّ جزءًا من الطمأنينة، كأن كل مشكلات العالم انتهت ولم يبقَ إلا الحاجّة عزيزة، كما أن هذا الحديث القصير هو إنجازي الوحيد لهذا اليوم. صحيح أني فشلت في كل شيء آخر، إلا

أني نجحت في كسر وحدة أمي التي لا تشكو منها أبدًا، لكني أعلم أنها تنخر في قلبها. كفى بهذا إنجازًا لهذا اليوم. أبتسم لأول مرة في اليوم وأنا أغلق ستائر الغرفة لأتأكد من إظلامها تمامًا استعدادًا للنوم، وأفكر في كوني سأستيقظ أفضل حالًا بلا شك. ربما يكون اليوم مثل سابقه، وربما يكون هو أيضًا اليوم المنشود الذي سيتغير فيه كل شيء.

لولا هذه الفكرة لما رغب أحد في أن يستمر في الحياة يومًا آخر. أظن أن فقدانها، فقدان احتمالية أن يكون الغد هو اليوم المنشود، هو السبب في أن يكتئب المكتئبون وينتحر المنتحرون، وأنا لم أفقدها بعد، وأجاهد حتى لا أفقدها. عجيب ما يقنعك به عقلك لتتمسك بالحياة يومًا آخر، عجيب فعلًا.

– نمت يا سامح؟

يقطع صوت أمي أفكاري من خارج الغرفة.

– بحاول. كله تمام؟

– بطمّن عليك. ربنا يفرجها عليك.

لا أجيب، وأفتح الهاتف في الظلام، لأواجه هزيمتي الأخرى؛ فغير هزيمتي في البحث عن عمل، التي دفعت بنادية إلى ترك المنزل، ولم أبذل جهدًا بصراحة لتغيير قرارها، توجد هزيمة أخرى عملاقة، وهي أن الفتاة الوحيدة التي أحببتها بصدق، هاجر، حظرتني من كل وسائل التواصل تقريبًا، وهو ما لا ألومها عليه طبعًا. صبرت عليّ ثلاث سنوات، وأنا رجل أضعف من هدم المنزل، حتى لو كانت نادية

مجرد زوجة تقليدية لم أحبها يومًا. وعدت هاجر آلاف الوعود التي لم أنفذ منها شيئًا. أتأمل في رسالة هاجر الأخيرة وأبكي ثانية، أبكي بحرقة أكثر. هزيمتي في الحب أكثر قسوة من هزيمتي في البحث عن عمل، لكن لا أحد يعرف. تدعو أمي لي لأني عاطل، ويشفق عليّ الناس لأني عاطل، ولا يأبه أحد لأكبر خسارة في حياتي. أفتح صورة لهاجر على الهاتف، كنت قد التقطتها في يوم جميل قضيناه معًا في مطعم عائم. أقرّب الصورة على عينيها أكثر، وأتأمل فيهما حتى يغلبني النوم.

الحكاية السابعة:

المشابك السحرية

«يحكيها الطفل الذي لا يحب الإجازة الصيفية»

كنت طفل عيوني أوسع من هدوم العيد

وأطيب من شراب الورد يمكن

كنت شعلة من الذكاء بس بيقولوا عبيط

حتى حافظ غنوة واحدة ألف مرة ما نسيهاش

– فؤاد حداد

أضع يدي على آلة التنبيه في تواصل مزعج، أملًا في أن يتحرك سائق التاكسي ويفسح الطريق. يُخرِج يده من النافذة مُشوِّحًا في عصبية:

– الصبر يا أستاذ الصبر، يعني أدوسهم؟

أتجاهله وأحاول النظر عبر سيارته لأرى ماذا يعني بـ«أدوسهم»، لأكتشف أن الزحمة مصدرها خروج الطلبة أفواجًا من مدرسة «عمرو بن العاص» الابتدائية، ويبدو من حالة الهرج العامة والسعادة العارمة، التي تتحول إلى شيطنة ورغبة في الاستفزاز، أن هذا هو اليوم الأخير في الامتحانات. يتحرك صف السيارات قليلًا فتصبح وجوههم أقرب. ليسوا صغارًا، ولم يكبروا بعد ليخضر شنبهم، ربما هم في نهاية المرحلة الابتدائية محلًا.

يتوقف الطريق كليًا بسبب زحام الطلبة والسيارات، وسائق النقل الذي قرر أن السير عكس الاتجاه في شارع ضيق وقت خروج المدراس هو أذكى ما يمكنه فعله في هذه اللحظة. أتأمل في وجوه الطلبة، وخصوصًا الطالب القصير القامة الكثيف الشعر الذي لا يشاركهم الهرج، وتظهر طبيعته الهادئة–أو المكبوتة– في عينيه. شيء ما في مظهره يذكّرني بطفل آخر.

طفل أقصر قليلًا من كل أقرانه، ينصرف من امتحانات الشهادة الابتدائية ولا يبدو مبتهجًا بالإجازة مثل بقية الأطفال، بل يبدو كأنه يحمل همّ شيء ما ينتظره. وكان هذا حقيقيًا؛ فهو يعلم أن الإجازة تعني أنهم سيقضون أشهر الصيف كلها في قريتهم الصغيرة. هم –نظريًا– انتقلوا إلى المدينة الصغيرة أيضًا؛ لزوم المدراس والجامعات وما إلى ذلك، لكن –في حقيقة الأمر– ما زالوا هناك في القرية لم يخرجوا منها، قيم القرية، وأخلاق القرية، وأخبار القرية التي لا تنقطع، وأعمال أبيه الغامضة في القرية التي تقتضي نزولًا أسبوعيًا، وأرضهم التي تتطلب قضاء الصيف وكل ما يمكن قضاؤه من أيام هناك لرعايتها. لهذا، فور انتهاء الامتحانات، تنتهي الحاجة إلى البقاء في المدينة. لا مكان هنا للترفيه ولا الراحة، فلترتَح هناك، في «البيت الكبير».

والبيت الكبير ليس كبيرًا بالمعنى الحرفي، وقتها بدا كبيرًا في عين الطفل بلا شك، لكنه لم يكن أكثر من ثلاث غرف، لكن اسمه الكبير نسبة إلى ساكنيه؛ فهو بيت الجدة التي تعيش وحدها، وهو سبب أدعى لقضاء الصيف كله معها للونس. يمتلأ البيت بالناس؛ أولاد الأخوال والأعمام وزوار يأتون لحاجات مختلفة. لا مجال لأي

خصوصية هنا. ما الذي يريده طفل على أعتاب المراهقة أصلًا بالبقاء وحيدًا؟ ماذا سيفعل بالخصوصية؟ لو تُرِك وحده لا بد أنه سيتحول إلى شيطان رجيم ويرتكب أبشع الآثام، لهذا سيقضي كل الأشهر في البيت المزدحم دون أن ينعم بلحظة خلوة واحدة.

وفي البيت الكبير، تتشابه كل الأيام: يبدأ الصباح بتناول البيض الطازج والفول والطعمية. مهمتي الثابتة كانت شراء الطعمية والفول. أحمل الطبق المعدني وأنطلق في المهمة المقدسة، محاولًا بجسدي القصير إيجاد النقطة المناسبة للوقوف ليراني الرجل وسط الزحام. حين يراني أخيرًا، يمد يده ليأخذ الطبق ويملأه بالفول دون كلام، ويملأ القرطاس الورقي بالطعمية دون سؤال؛ لأنه حفظ الطلب بالفعل. يتطوع أي زبون من المنتظرين بعملية نقل القرطاس من البائع إلى يدي الصغيرة، ونقل الجنيهات من يدي إلى يد البائع، وأبدأ رحلة العودة حاملًا الطبق في يد والقرطاس في يد، سائرًا في سرعة أبطأ من سرعة الذهاب خوفًا من أي حادث يؤدي إلى وقوع الطبق، ومن ثم العقاب.

أنهي الرحلة الطويلة بنجاح. في الحقيقة هي لا تزيد على ٣٠٠ مترًا، لكن الخطوة الصغيرة الحذرة تجعلها تبدو أكبر. أصل البيت ويبدأ الإفطار. أيادٍ كثيرة تزدحم على الأواني، ولا أشارك في الصراع؛ لأني، مثل كل يوم، أتناول ساندوتش الفول بالبيض الذي أعدته أمي قبل أن يبدأ الجميع بتناول الإفطار. وبعد نهاية الإفطار، يتم «هشنا» –نحن أطفال العيلة– كالدجاج. انطلقوا في الشوارع ولا تعودوا قبل الغروب، ليكون الجميع قد أنهوا ما ينتظرهم من أعمال منزلية وغيرها في هدوء.

يشبه منظر خروج سبعة أطفال من المنزل منظر الجراد؛ ينطلقون كأن ميعادًا محددًا سيفوتهم لو لم يسرعوا، مع أن اليوم نفسه يظل يتكرر بحذافيره لأشهر ولا شيء أبدًا يحدث في القرية الصغيرة. وهنا تبدأ مشكلتي المتجددة يوميًا؛ كيف سأقضي اليوم الطويل حتى غروب الشمس؟ يندمج أطفال القرى معًا سريعًا، كأنهم يعرفون بعضهم بعضًا منذ سنوات، لكن هذه القاعدة لا تنطبق عليّ؛ لأني لست ابن القرية بالضبط. شعري الكثيف وملابسي المهندمة لا تشبه بقية الأولاد، لهذا كنت غريبًا بينهم، ولهذا —ومع جسمي الضئيل— كنت ضحية سهلة لحفلات التنمر —لم يكن وقتها اسمه «تنمر»— الجماعية، ولم يكن الأمر ليخلو من ضربة هنا أو قرصة هناك، ومرات كثيرة عدت إلى البيت برأس ينزف دمًا أو كدمة زرقاء تخرج على أثرها أمي غاضبة وهي تجرني من يدي، وأكون أنا سببًا في إشعال الخلاف بينها وبين أم الطفل المعتدي.

لهذا تعلمت بعد عدة حوادث من هذا النوع أن أتجنب استفزاز الحيوانات الصغار قدر الإمكان، وألعب في هدوء أو أتأمل أو أخترع أشغالًا وهمية أو أتطوع بقضاء المشاوير للكبار، ولا يساعدني هذا في التخلص من إحساس الغربة بين الأطفال.

وعلى عكس ما قد تظن، لم تكن الأمور في المدينة سهلة أيضًا؛ فحين أعود من الإجازة الطويلة، يكون الجميع قد وثّقوا روابطهم بالفعل في الصيف، ولديهم ذكريات مشتركة وقصص ليس لي مكان فيها، كما أن وجود بعض الكلمات الريفية الملتصقة بلساني بسبب طول معاشرة أطفال القرية يؤكد مكاني وسطهم: ابن القرية القادم

إلى المدينة. المحصلة أني –طوال العام– كنت غريبًا أينما حللت، غربة تليق بمفكر مضطهد وليس مجرد طفل في الابتدائية. واستمر هذا الإحساس معي حتى هذه اللحظة، رغم استقراري بطبيعة الحال في المدينة منذ سنوات طوال، لكني ما زلت غريبًا.

وكما أحاول طول الوقت التغلب على إحساس الغربة، حاولت أيضًا في هذه المرحلة المبكرة اختراع طرق أهرب بها من الإحساس نفسه. لم أكن أعرف وقتها بالطبع أن هذا ما أشعر به، لكني كنت أعرف جيدًا أن لعبة «المشابك» تسعدني. ولعبة «المشابك» هي لعبة اخترعتها في فترات جلوسي الطويلة في الغرفة وحيدًا، حيث لا توجد أي وسيلة للترفيه ولا ألعاب من أي نوع. كنت أجمع كل المشابك الصغيرة، وأكوّن من كل مجموعة فريقًا لكرة القدم، وأطلق عليهم أسماءً، وأضع حدودًا لشكل المرمى، وتبدأ المباراة المشتعلة بين فريقي الأهلي (المشابك الخشبية) والزمالك (المشابك البلاستيكية)، والحكم هو أنا بالطبع، وعادة ما تنتهي المباريات الطويلة المليئة بالأحداث بفوز الأهلي بحكم الانتماء المبكر.

مشكلة هذه اللعبة الوحيدة هي أن أبي كرهها لسبب مجهول؛ ففي المرات التي كان يراني فيها ألعبها، كان يسارع بهدم اللعبة كلها في غضب، ولكمي في كتفي أو صدري أو أي مكان تصل يده إليه، مطالبًا إياي بأن أكف عن «شغل المجانين» وأن أعيد المشابك فورًا إلى البلكونة وأجد شيئًا آخر لأفعله. في كل مرة رد الفعل نفسه، حتى أصبح ينبه على أمي بوضع المشابك في أعلى مكان ممكن لا تصل يدي إليه. وسمعته يحدثها أن كثرة لعبي وحيدًا ستجعلني «ملبوسًا»، وهي كلمة شائعة في بيتنا بحكم الجذور الريفية التي تجعلك دائمًا

مرتاحًا لوجود مسؤول آخر خفي –العفاريت– عن كل ما يحدث في حياتك. لهذا، وحماية لي من العفاريت الواقفة بالمرصاد، فقدت اللعبة التي كنت أجد فيها مهربًا مؤقتًا من الساعات القاسية الطويلة.

بعد أن فقدت لعبة المشابك السحرية، أصبح مطلوبًا مني اختراع لعبة أخرى، تكون أولًا صالحة لشخص واحد كالعادة، وتكون خارج المنزل لأبتعد عن عيون أبي وأمي اللذين يراقباني بحثًا عن الوقت الذي سيظهر فيه العفريت الذي يجعلني أجلس وحيدًا معظم الوقت. طبعًا لو كنت أعرف وقتها لقلت لهم إن هذا العفريت اسمه الانطوائية، لكني لم أكن أعرف.

على كل حال، وجدت أخيرًا اللعبة المختارة المستوفية لكل الشروط: «مطاردة الفراشات». وهي ليست بالمعنى المجازي هنا، بل بالمعنى الحرفي. كنت أخرج من المنزل لألعب مع الأطفال، وهو ما يُشعِر كل من في البيت بالارتياح، لكن لا ألعب مع أحد، بل أبحث عن الفراشات وأطاردها، أو الدبابير، أو أي شيء يطير وشكله غريب. أحيانًا ألحق بها وأجمعها في برطمان قليلًا ثم أطلقها ثانية، وأحيانًا لا ألحق بها لكن لا أكف عن مطاردتها. لعبة بسيطة أستمر فيها بالساعات، ولا يصيبني الملل أبدًا. وأعود إلى المنزل منهكًا من أثر المطاردات، فتنظر إليّ أمي باطمئنان لظنها أن هذا المظهر المرهق المليء بالتراب دلالة على أن حياتي الاجتماعية كطفل تسير على ما يُرام.

– يا أستاذ الله يرضى عليك.

أنظر إلى الوجه المربع، الذي اقتحم نافذة سيارتي، في بلاهة

وعدم استيعاب.

– الطريق فتح وإحنا ورانا مصالح، إنت ناوي تبات هنا ولا إيه؟

يقولها سائق توصيل يحمل على ظهره علامة التطبيق الشهير إياه.

تبدأ الموجودات حولي في الاتضاح تدريجيًا، وأفطن إلى مكاني في صف السيارات، الطريق الفارغ أمامي، والصف الطويل ورائي المليء بالسائقين الضجرين الغاضبين، ويتناهى إلى سمعي صوت عسكري المرور: «النيسان الرصاصي، اتحرك، افتح طريق.»

– حاضر ياسطا، حاضر يا إخواننا، الصبر.

كنت أود الاعتذار، لكن ماذا سأقول؟ اعذرني فقد أعاد إليّ منظر الأطفال المنصرفين من المدارس ما أحاول تجاهله طوال الوقت؟ لن يتفهم سائق الدراجة النارية هذا بالطبع، ولا العسكري أيضًا. أنزلت «الهاند»، وانطلقت بسرعة غير متوقعة لتأخُّري عن التجمع العائلي الأسبوعي، ولعلي بالغت في السرعة أيضًا هروبًا من سباب السائق خلفي، وهروبًا من نفسي.

الحكاية الثامنة

في ذم الشاي

«تحكيها الفتاة التي تُعِدُّ لنا الشاي اليوم وكل يوم»

وأكتب كتاب فلسفة

في الشاي أبو نعناع

والدنيا اللي في بالي

– فؤاد حداد

أقف في المطبخ الضيق لعمل «دور تانٍ» من الشاي؛ لأن المرة الأولى كانت بعد الغداء مباشرة، والآن تطالب العائلة بمرة ثانية؛ لأن هذا هو وقت تناول «البسبوسة»، والشاي هو قرينها طبعًا. أملأ الوعاء بالماء، بينما تصل إلى سمعي أصوات الضحكات والمزاح الصاخب من الخارج. أشعل البوتاجاز، وأضع الماء عليه؛ لأن في منزلنا قاعدة كونية تنص على عدم استعمال غلاية الماء الكهربية في عمل الشاي لأنها تجعل طعمه سيئًا، وهو ما أجده كلامًا فارغًا طبعًا، لكن لا مفر من الالتزام به.

أبحث عن مكان السكر الذي يتغير كل مرة على حسب آخر مستخدم له، وأفكر أني أكره عمل الشاي من كل قلبي. أغلق الأدراج في عنف في أثناء رحلة البحث؛ إفراغًا لغضبي اللحظي من الشاي، لأنه –عمل الشاي وليس شربه– يأتي دائمًا في أسوأ الأوقات؛ فمة وقتان في تجمعات العائلة يُطلَب فيهما الشاي بالأساس: بعد الغداء

مباشرة؛ لأن الأكل المليء بالسمن البلدي وصل تأثيره إلى المخ ويحتاج إلى الشاي ليبطل مفعوله جزئيًا وإلا سينام الجميع مكانهم مثل أهل الكهف، ولكن المشكلة أن وقتها أكون أنا أيضًا مثلهم، أنا أيضًا «سطلني» الأكل وأريد بعض الراحة والاستلقاء على الأريكة بلا عمل، فلماذا يقع الاختيار عليّ في كل مرة لعمل الشاي؟ الإجابة بسيطة وواضحة: بسبب الكروموسوم إكس. ولغير دارسي الأحياء فهذا هو الكروموسوم الذي يجعلك امرأة، ولا أعرف لماذا يعتقد الناس أنه –الكروموسوم– يحمل جينًا مخصصًا لعمل الشاي؟

وليس جين صنع الشاي فقط هو الذي أحمله، بل يرى الجميع أن المرأة –التي هي أنا– تتمتع بكثير من الجينات المتميزة، مثل: حب تنظيف المنزل وغسل الملابس وكيها؛ فالأعمال المنزلية بالنسبة إلى الرجل عمل ممل وصعب لا يقدر عليه، أما المرأة فهي تركيبة مختلفة تمامًا، تركيبة تجعلها بالطبع عاشقة لكل الأعمال المنزلية السيزيفية التي لا تنتهي؛ فهي تستيقظ كل يوم، وتنظر إلى الغسيل والتراب في أنحاء الشقة بابتسامة سعيدة لأنها وجدت ما ستحب فعله اليوم.

كما أن المرأة أيضًا لديها ضمور مزمن في غدة الاستمتاع؛ فهي لا تحب الجلوس مع العائلة، وتمقت جلسات السمر، وتُفضِّل عليها الوقوف في المطبخ لصنع الكيك مثلًا. وحتى بعد صنعه، هي لا تستمتع بالأكل منه؛ فالمرأة أسمى من التفكير في هذه اللذات الدنيوية الصغيرة، بل تكمن سعادتها الحقيقية في رؤية الآخرين يلتهمونه باستمتاع، وتنظر إليهم في رضا كما علمتنا السيدة كريمة مختار. وهي أيضًا –المرأة لا كريمة مختار– لا تحب نزول البحر مع الجميع في المصيف السنوي، ولا الجلوس على الشاطئ والاسترخاء

لا سمح الله، بل تُفضِّل الوقوف لتجهيز عشرات الساندوتشات، وحمل الملابس حتى ينتهي كل شخص آخر في العائلة من البلبطة، وطبعًا فقرتها المفضلة هي غسيل الملابس المليئة بالرمال بعد العودة من البحر بينما يرتاح الجميع من عناء السباحة.

لهذا يكون الأمر غريبًا وصادمًا حين تقول امرأة الحقيقة الصادمة: «أنا أيضًا إنسان، أحب العطاء بالطبع، لكن أيضًا أحب الاستمتاع والراحة.»

الحمد لله وجدت السكر، وأفرغته في سكرية من بواقي الطقم الصيني الخاص بزواج أمي، ذلك الطقم الذي يوجد مثله في كل البيوت المصرية تقريبًا بورورده الحمراء والخضراء الباهتة، وأفكر في أن الوقت الثاني، الذي يُطلَب فيه عمل الشاي، هو مثل الآن، بعد أن «تحلو» القعدة حرفيًا ومجازيًا. تشتعل الموضوعات والنقاشات، ويأتي وقت تناول الحلو، وطبعًا يلزم شاي في هذا الوقت. أسمع صوت النقاشات من الخارج بين أولاد الخالة، وأشعر بالغضب وأوشك على البكاء. منذ الطفولة أكره أن يفوتني أي شيء، ودائمًا ما يجعلني الشاي أفوت الكثير.

أبدأ في رص الأكواب على الصينية المعدنية المذهبة الأطراف، وهي صينية التجمعات والضيوف، أما في الأوقات العادية فنكتفي بالصينية البلاستيكية الخفيفة. أضع في طبق عميق لكن شديد الصغر بعض النعناع، وطبق مثله تمامًا أملؤه بالقرنفل، وأحاول أن أحافظ على اختيار الأكواب كلها من طقم واحد تنفيذًا لتعليمات أمي، وهي ليست مهمة سهلة في بيت كبر فيه خمسة أطفال، أربعة

من الذكور وأنا، وقضوا على عدد لا بأس به من الأكواب في أثناء رحلة نموهم واكتشافهم ما حولهم من أشياء.

انتهت التجهيزات، وأقف الآن في ملل منتظرة بداية الغليان لأضع الشاي. طبعًا لا مكان لشاي الورقة في بيتنا للسبب نفسه الذي مُنِع لأجله استخدام الغلاية الكهربائية في غلي الماء؛ لأن الاثنين «قلة مزاج»، أما قلة مزاجي أنا فلا يهتم بها أحد! أسمع ضحكات عالية من الخارج، وأنظر إلى الماء، فأخمن أن أمامه بعض الوقت ليبدأ الغليان. أهدئ النار تحسبًا، وأخرج من المطبخ بهرولة أقرب إلى الجري حتى غرفة المعيشة.

– الشاي فين؟

– لسه على النار.

أجد كل العائلة منهمكة في الضحك على شيء ما.

– بتضحكوا على إيه؟

– مش هنقول لك، خليكِ في الشاي.

يجيبني أخي الأصغر متعمدًا غيظي لعلمه بمدى كرهي لعمل الشاي، وكرهي أن يفوتني شيء. أتجاهله بعد أن أشرت له بيدي بعلامة كونه مجنونًا، وأسأل أفراد العائلة الآخرين، فلا يجيبني أحد. يرفض الصغار الإجابة عن عمد لإغاظتي، ويتجاهلني الكبار لأنهم نسوا بالفعل ما كان يضحكهم قبل دقيقة واندمجوا في موضوع آخر.

أعود إلى المطبخ وأنا أكاد أبكي، مفكرة في كل الاحتمالات التي جعلتهم يضحكون، هل قام ابن خالتي الصغير– خمس سنوات–

بحركة ما مفاجئة من حركات الأطفال إياها فضحكوا؟ هل قال أخي الأكبر نكتة؟ هل حكى أبي عن موقف من مواقف السفر مع الحمقى والمغفلين؟ هل قلّد ابن خالتي أحد أبطاله المفضلين كما يفعل دائمًا؟ توجد عشرات الأسباب لضحكهم، وثمة احتمال لا بأس به أن تكون قد فاتتني أفضل طرفة في العالم، الطرفة التي لو كنت سمعتها لكنت ضحكت عليها بقية حياتي، الطرفة التي كنت سأتذكرها في أحزن أيامي فتخفف عني وتعيد البسمة إلى وجهي، الطرفة التي سأحكيها لأولادي ومن بعدهم أحفادي، وسأحكيها لكل شخص أقابله لأول مرة فتنكسر بيننا الحواجز وينبهر بخفة دمي ونصبح أصدقاء، الطرفة التي كنت سأقصها في مقابلات العمل فأُعيّن فورًا، وسأحكيها على فراش الموت للملتفين حولي ليذكروني دائمًا بعد موتي بالبسمة والسعادة، كل هذا فاتني لأني مشغولة بعمل الشاي!

أضع الشاي في الماء، وأطفئ النار بعدها، وأنتظره «ليهدأ» قبل أن أُفرِغه في الأكواب. هانت.

أنهيت صب الأكواب، وذهبت إلى غرفة المعيشة، مطالبة أي شخص بأن يذهب ويُحضِر هو صينية الشاي؛ لأنني فتاة ضعيفة اليد لا تقدر على حمل كل هذا العدد من الأكواب. كان هذا غير حقيقي بالطبع، لكن هذه هي الطريقة التي أُجبِر بها أخي على فعل أي شيء ولو كان صغيرًا جدًا. نظر إليّ نظرة «عارف إنك بتشتغليني بس مش هعرف أتكلم»، فابتسمت متظاهرة بالبراءة، وجلست أخيرًا.

– طيب عايزين ناكل البسبوسة؟

أجبت بحدة غير متوقعة:

– أنا عملت الشاي، حد غيري عليه الأطباق والشوك.

يصر إخوتي أنها مهمتي أنا، ويؤيدهم أخي الأكبر الذي وصل لتوه متأخرًا كالعادة متعللًا بازدحام شارع المدرسة المجاورة، وأنا أرفض في عناد لأني قمت بالمهة الأسخف وهي الشاي. نبدأ معركة النفس الأطول، وأقرر تجاهلهم، إلى أن تعلن أمي:

– خلاص هقوم أنا.

وطبعًا لأني طيبة القلب –مميزات إنجاب البنات– أرفض أن تقوم هي، وأتحرك صاغرة إلى المطبخ لأحضر الأطباق الصغيرة والشوك، وأعود «جريًا» وأجلس في انتظار نصيبي من البسبوسة، رافضة في إصرار تقطيعها.

– كفاية عليا كدا خلاص.

– عندك حق، هقطعها أنا، كتر خيرك، تعبناكِ معانا.

تقولها أمي وهي تعنيها، فيتبخر معظم غضبي في ثوانٍ، وأترك لها مهمة تقطيع البسبوسة؛ فهي مهمة بسيطة لا تتضمن حركة، لكنها مثل حمل صينية الشاي بالنسبة إليّ؛ نوع من الانتصار أمام نفسي والاعتراض على مهمة عمل الشاي الدائمة. تناولني أمي طبق البسبوسة الصغير قبل أي أحد آخر كنوع من إبداء الامتنان، ويثني الجميع على البسبوسة والشاي، فيتبخر جزء آخر من غضبي، وأبدأ في العودة إلى خط الأحداث والحكايات والمشاركة فيها بعد الفاصل القصير نظريًا الذي أخذته في المطبخ، وأنبه في حزم أن على كل شخص أن يحمل طبقه وكوبه إلى المطبخ بعد الانتهاء لأني لن أقوم

بهذه المهمة، وأنا أعلم يقينًا أن هذا لن يحدث، لكنها وسيلة أخرى للانتصار أمام نفسي، وسيظل غضبي قائمًا إلى أن أجد الطريقة السحرية التي يصنع فيها الشاي نفسه بنفسه، وإلى أن أجد الطريقة التي لا تفوتني فيها الحياة لأني كنت في المطبخ.

الحكاية التاسعة

العالم بعين غاضبة!

«تحكيها السيدة الأربعينية مالكة الهيونداي ماتريكس،

التي تسكن في التجمع الأول»

والسنين فاتت وأنا بناديك،

كنت من صغري بحايل فيك،

أما دلوقتي فؤادي انفجر

– فؤاد حداد

وإنتِ مالك؟ خليكِ في حالك. تصدمني وقاحة الفتاة التي لم تكمل عشرين عامًا في الرد! كيف تجيبني بتلك الطريقة؟ ولماذا؟ ما الذي فعلته خطأ حتى تنهرني بهذا الأسلوب المتدني؟ ألم يعد أحد يقبل النصيحة هذه الأيام؟ هل أصبح مطلوبًا مني الآن أن أرى المسخرة وقلة الأدب وأصمت؟

منذ أن دخلت النادي وأنا أرى تصرفاتهما المريبة؛ مرة تمسك بيده وهي تضحك في خلاعة، وأحيانًا تستند برأسها إلى كتفه. تعمدت تغيير مكاني والجلوس على مقربة منهما أملًا في شعورهما بالإحراج وأن يكفًا عما يفعلانه بالتبعية، لكن لا فائدة. أخيرًا، مال الشاب على أذنها وقال لها شيئًا، فضحكت بصوت عالٍ جدًا وأمسكت بيده وقبّلتها أمام الجميع!

فاض الكيل! قمت من مكاني في غضب ووجهت كلامي إلى الفتى:

– دا مكان عائلات، اللي بتعملوه دا ما يصحّش!

نظر إليّ الولد بعين ميتة ودون تعبير، ورد بصوت مراهق أجش:

– إحنا عملنا إيه؟ مش فاهمك!

– مش عارف عملتوا إيه؟ قلة الأدب اللي بتعملوها دي.

ردد بصوت عالٍ مهزوز.

– قلة أدب إيه؟ شايفاني بُستها؟

ضحك هو وضحكت فتاته بصوت عالٍ عن عمد بالطبع لتغيظني. تمالكت أعصابي وقد هزتني وقاحتهما:

– لأ، بس قليل الأدب، إحنا في مكان عام.

نطقت الفتاة أخيرًا:

– وإنتِ مالك؟ خليكِ في حالك؟

عرفت أن لا فائدة من النقاش. انصرفت في غضب وأنا ألعن قلة التربية بصوت عالٍ. أشعر بدمي يغلي، وأسمع نبضات قلبي في أذني، وأقاوم لكي أخفي الرعشة التي اجتاحت جسدي. لا بد أن ضغطي تخطى الـ١٦٠ الآن، خصوصًا أني قد نسيت موعد تناول الدواء اليوم. أي أيام هذه التي أصبحت فيها قلة الحياء مقبولة؟! حتى وأنا زوجة منذ ستة عشر عامًا، لم أفعل هذا أنا وزوجي في أي مكان يومًا.

عدت إلى مكاني في النادي، لكن لم أحتمل الجلوس طويلًا؛ صوت ضحكاتهما الوقحة يصل إليّ فيصيبني بالغم أكثر وتستشيط أعصابي أكثر فأكثر. حملت حقيبة يدي والكتاب، الذي كنت أنتوي قراءته، وتوجهت إلى السيارة. جلست فيها وفتحت التكييف، لكن لم أستطع القيادة وأنا في هذه الحالة العصبية. فتحت فيسبوك على مجموعة رواد النادي، وكتبت منشورًا حكيت فيه باختصار ما حدث. صغت الفقرة الأخيرة بعناية. طالبت فيها الأهل بتربية أبنائهم، ومراقبتهم عن قرب أكثر من ذلك، لوقف هذه المهازل، وضغطت «نشر». صحيح أن الأمر استغرق مني نحو ثلث ساعة بسبب كتابتي البطيئة ومحاولتي البحث عن أفضل صيغة ممكنة، لكن الأمر يستحق، لعلنا نصل إلى حل ونعيد النادي إلى سابق عهده من الانضباط والاحترام.

أصبحت حالتي أفضل بعد كتابة المنشور، فقررت الانطلاق بالسيارة إلى المركز التجاري. مشكلته الوحيدة موقعه وسط زحام المدينة. الآن عليّ أن أمر بالطريق الواسع الذي يفزعني دومًا في أثناء القيادة. أتوتر بسبب منظر السيارات المسرعة خلفي في المرآة، خصوصًا سيارات النقل العملاقة، وأحاول الحفاظ على سرعتي البطيئة خوفًا من أي حوادث، وأشير في غضب للسائق خلفي الذي يضع يده باستمرار على آلة التنبيه. يتجاهل إشارتي ويُخرِج رأسه من النافذة مطالبًا إياي بأن أخلي الحارة اليسار، لا أفعل؛ لأني أسير فيها من البداية، فليذهب هو إلى أي حارة أخرى. يستمر بالضغط على آلة التنبيه ويبدأ بالسباب. لا أسمع ماذا يقول بالضبط، لكن من السهل تخمين أنه لا يغني في سعادة. توترت من سبابه،

وزاد ارتباكي، فتوقفت فجأة، فكانت النتيجة الحتمية أنه ارتطم بي بعنف. نزلت من سيارتي وبدأت في توبيخه؛ فبسبب رعونته واستعجاله لي حدث ما حدث.

ينظر إليّ السائق في دهشة:

– استعجال إيه يا ست؟ إنتِ مجنونة؟! إنتِ ماشية ٤٠ على طريق سريع.

فقدت أعصابي عند كلمة مجنونة؛ فهي الكلمة نفسها التي أظن أني سمعتها من البنت القليلة الرباية صباحًا وأنا أسير مبتعدة عنهما. لم أدرِ ماذا أقول، وانطلقت في الصراخ بعنف أفزع السائق وكل الواقفين. حاول الجميع تهدئتي، واعتذر السائق:

– خلاص يا ست، أنا الغلطان. اتكلي على الله.

وذهب لركوب سيارته. ركبت سيارتي وأنا ما زلت أرتعش من الغضب. اتصلت بسامي لأخبره فلم يرد كالعادة. عليه اللعنة هو الآخر. أكملت القيادة في طريقي إلى المركز التجاري. كان الاصطدام خفيفًا ولا يستحق تغيير خططي لأجله.

وصلت إلى وجهتي، وصعدت السلالم المتحركة، لأبدأ رحلة من أكثر النشاطات التي تقلل من غضبي وعصبيتي: المشي بلا هدف وسط الفتارين. أستغرق تمامًا في تفاصيل الملابس والأحذية، وأقرر شراء الحذاء الثالث لهذا الشهر، وبلوزة زرقاء طويلة. فكرت في شراء قميص نوم أعجبتني لمعته البرتقالية، لكن فكرت ثانية أنه إهدار للموارد ولن يلاحظه أحد. أظن أن ملابس الخروج أولى.

شعور العودة بالشنط المنتفخة يُشعِرني بالإنجاز. استغرقت العملية ساعتين ونصف، وأخذت الغنائم وتوجهت إلى المنزل.

في المنزل، أعدت تجربة القطع الجديدة في اللبس. لا بأس، ما زلت جميلة والله، لكن منه لله مَن أقنعني بالعكس. أنهيت فقرة التجربة، وارتديت ملابس البيت، وألقيت بالدجاج المتبل مسبقًا في الفرن، ووضعت الأرز على النار الهادئة.

ذهبت لأتفقد غرفة «سليم». وجدته مستلقيًا يلعب بالهاتف كالعادة. أشرت له لخلع السماعات فخلعها في تأفُّف.

– مش كان عندك درس علوم؟

– اتلغى.

وأعاد السماعات إلى مكانها إيذانًا بانتهاء الحديث. في هذه الأوقات، أفتقد سليم الطفل الجميل المتعلق بأذيالي، أما هذا المراهق الغاضب طول الوقت ككل المراهقين، بصوته الذي يقع بين الطفولة والرجولة، والذي يرفض تبادل أكثر من خمس كلمات معي في اليوم، فهو يثير أعصابي الثائرة أصلًا.

أغلقت باب غرفته في عنف، وجلست في مكاني المفضل: الفوتيه العملاق بجوار النافذة. فتحت الهاتف لأرى ردود الفعل على منشوري. فُوجِئت أن عدد التعليقات خمسة وخمسون تعليقا، وهو رقم كبير جدًا بالنسبة إلى منشوراتي! فتحت، فوجدت النقاش مشتعلًا. معظم التعليقات من سيدات النادي الفاضلات متفقات معي، لكن ثمة تعليقين أثارا الجدل. الاثنان من فتيات!

ارتديت النظارة واعتدلت في جلستي. كلام فارغ جعل دمي يفور للمرة العاشرة هذا اليوم. كلام من نوعية أن الولد والبنت أحرار، وأنني كارهة لمظاهر الحب، وأن الولد لو كان يضربها مثلًا لم أكن لأتدخل. تبرير للمسخرة تحت اسم الحرية. والحمد لله لم أكن مضطرة إلى الرد؛ فقد قام الأعضاء المحترمون والعضوات المحترمات بالواجب وزيادة. قررت تجاهلهم تمامًا، المهم أن رسالتي وصلت وأن نائب رئيس النادي شارك في التعليقات مبديًا استعداده لمناقشة الأمر في الجمعية العمومية، ووضع لائحة تُقيِّد التواصل الجسدي وقلة الرباية التي نراها، لكيلا يخرج الأمر عن السيطرة.

سمعت صوت المفتاح في الباب. تحركت ناحية المطبخ لأعيد تسخين الغداء. قابلت سامي في طريقي إلى المطبخ:

– الحمد لله على السلامة.

– الله يسلمك. واقع من الجوع.

– هجهز الأكل على ما تغيّر.

محادثة يومية بليغة لا تتغير، لا حرف يزيد ولا حرف ينقص. وضعت الطعام في الأطباق، وحملتها إلى غرفة المعيشة وليس طاولة الطعام، لنتناول الغداء أمام الشاشة العملاقة كالعادة؛ لأن وجودها يعطي مبررًا قويًا لعدم تبادلنا كلمة في أثناء الغداء، كأن السبب هو أننا نشاهد الشاشة بتركيز شديد يمنعنا من الكلام طبعًا.

يخرج سليم أخيرًا من غرفته، ونجلس نحن الثلاثة نتناول الغداء في صمت أمام فيلم أبيض وأسود سخيف. متأكدة من أنه

لا يعجبهما أيضًا، لكن لن يتطوع أحد باقتراح تغيير القناة لأن هذا يتطلب نوعًا من التواصل، وهو ما نتجنبه –التواصل– منذ سنوات لسبب مجهول، كأن مرور الأيام أنهى كل الكلام الممكن قوله بيني وبين سامي، أما سليم فأظن أنه يقلد ما يراه.

أنهينا الغداء المتأخر دون كلمة، وتوجهت إلى المطبخ لأبدأ الرحلة اليومية: غسيل الأطباق. وحتى لو أنهيت غسيلها أبحث عن أي نشاط آخر لعمله في المطبخ بحيث أتجنب الخروج منه، بينما سامي يشاهد مباراة ما وهو يشرب الشاي. بعد ساعة أغلق المباراة، معلنًا ضمنيًا أن هذا هو وقت النوم. كنت بالفعل قد سبقته إلى الفراش. سمعت صوت خطواته قادمة فعدلت من مظهر شعري الذي بعثرته الوسادة، وأعدت وضع العطر الذي اشتريته اليوم، وعدلت من وضع قميص النوم بحيث يُظهِر جزءا أكبر من ساقي.

دخل الغرفة ونام معطيًا ظهره لي لأنه لا يرتاح –على حد قوله– إلا على الجانب الأيمن. حاولت أن أبدأ أي حديث:

– عايزة أحكي لك حاجة حصلت النهارده.

– مش قادر، معلش اليوم كان طويل ومتعب، خليها بكرة.

وأنا أعلم وهو يعلم أن هذا الغد لا يأتي أبدًا. صمتُ قليلًا، ثم مددت يدي برفق ووضعتها على كتفه في تردُّد. لم يُبدِ استجابة، فحركتها ببطء إلى شعره.

– تصبحي على خير.

صمتُ ولم أرد. سحبت يدي وأدرت له ظهري أنا أيضًا، وفتحت

الهاتف لأتابع آخر التطورات في قصة الولد والبنت المنحرفين في النادي.

الحكاية العاشرة

حكاية عادية عن رجل محبط

«يحكيها الرجل الذي مل من المحاولة»

بيني وبينك بلاد

وإحنا في بلد واحدة

دول أربعين ضلع

ولا أربعين جلدة؟

– فؤاد حداد

أجلس عند الطبيب في انتظار موعد دخولي. أسلي نفسي بالنظر في وجوه من حولي محاولًا تخمين سبب زيارة كل منهم. أراهن نفسي أن هذا الشاب الأشقر هناك، والعجوز الجالس بجوار باب العيادة، والرجل الخمسيني صاحب البطن العملاق، كلهم هنا للسبب نفسه الذي حضرت من أجله. الجلسة المتوترة، وهزة الساق، والشعور بالعار الذي يظهر مع كل حركة منهم، والارتباك الشديد في أثناء دفع ثمن الكشف للحاجّة سناء السكرتيرة العجوز؛ أحفظ كل هذا وأعرفه فور أن أراه، أما البساطة، التي يتعامل بها الباقون، فهي توحي أنهم هنا لأسباب مختلفة، ربما عدوى جلدية أو مشكلات أخرى، وطبعًا لن يمكنني التأكد من صحة نظريتي، لكن كل ما أراه يؤكدها.

لا أستبعد طبعًا أن يكون أحدهم يقوم باللعبة نفسها الآن هو

الآخر، ولا بد أنه عرف سبب قدومي أيضًا؛ من توتري والسجائر التي أحرقها واحدة وراء الأخرى. هل يسمح الطبيب بالتدخين في عيادته لأنه يعرف حالة مرضاه النفسية واحتياجهم إلى إفراغ توتُّرهم؟ ربما؛ لأني لست معتادًا على رؤية عيادات يُسمَح فيها بالتدخين. بالطبع هذه المرة أنا أقل توترًا من المرات السابقة. ما زلت أذكر المرة الأولى ونظارة الشمس التي حرصت على ارتدائها داخل العيادة كنوع من التخفي، والمماطلة التي امتدت لسنوات قبل أن أقوم بهذه الخطوة. أما الآن فيمكن القول إن توتري قل إلى النصف تقريبًا، ككل شيء آخر في الحياة. التعود يكسر هيبة الأشياء.

في الزيارات الأولى، كنت غارقًا في الخوف النابع من الإحساس بالعار والخجل. كنت أنظر إلى نفسي لأتأكد من كوني أرتدي ملابسي؛ لأن شعور أني أقف عاريًا وسط الناس كان لا يفارقني، كأن كل من يقابلني في الشارع والعمل والمواصلات يعرف. بمرور الوقت وتكرار الزيارات، اختفى هذا الشعور، ليس فقط بسبب التعود كما قلت، لكن لإدراكي أن «كلنا في الهوا سوا»؛ ففي المرة الأولى التي التقيت فيها أحد معارفي في العيادة، تمنيت أن تبتلعني الأرض، ثم بعدها وجدت أنه هنا للسبب نفسه، وتوالت اللقاءات مع معارف آخرين، بل وأحيانًا تحول الموضوع إلى مادة للمزاح، صحيح أنه مزاح مرير، لكنه أفضل من الصمت المتوتر على كل حال.

أما الآن فما يسيطر عليّ أكثر هو الملل، الملل من المحاولات الفاشلة وتكرارها، عشرات المحاولات، بين الأقراص المحلية الصنع، والأقراص المستوردة، وتغيير الأنواع والجرعات، وحتى الوصفات الشعبية من نوعية خلطة الأسد وحبوب اللقاح، كل هذا لم يغير

شيئًا. مللت وقاربت على اليأس. وأيضًا أختبر توترًا من نوع آخر، توترًا مرتبطًا بتساؤل عما سيقترحه الطبيب هذه المرة، ربما ستكون هي المرة التي يخبرني فيها بصوت درامي: «آسف، حالتك ميئوس منها.»

ينتشلني من تساؤلاتي صوت الحاجة سناء العجوز: «أستاذ سامي»، فأطفئ السيجارة الخامسة سريعًا وأقوم لدخول حجرة الكشف. يرحب بي الطبيب بحرارة متوقعة؛ فنحن عِشرة شهور طويلة. يسأل بضعة أسئلة روتينية عن الأحوال وحالتي النفسية وما إلى ذلك، فأريحه وأختصر الطريق مخبرًا إياه أنه لا جديد تحت الشمس، والعلاج المستورد الغالي الثمن، الذي أواظب عليه منذ آخر زيارة، لم يُؤتِ ثماره، ولم يُحيِ الموتى. أقول هذا كله في سرعة بلهجة تقريرية وأنتظر رده. يصمت قليلًا، ثم يخبرني أنه لم يعد غير حل واحد. أتوقع أنه سيلقي الدعابة السمجة نفسها التي لا يمل منها عن الزواج بفتاة شابة تكون هي ترياقي وتعالج ما فشل فيه الطب، لكنه لا يفعل، ويتحدث بجدية عن مقترح أجّله إلى النهاية لكنه سينهي معاناتي إلى الأبد. أقاطعه معترضًا على تجربة أي أدوية جديدة؛ حاولت كل شيء بالفعل ولم يبقَ إلا انتظار معجزة من معجزات المسيح. يضحك ويخبرني أن العلاج هذه المرة مختلف، وأنه لا مجال للخطأ فيه، بل هو ناجح بنسبة مئة في المئة.

يفتح دولابًا صغيرًا تحت المكتب، فأتابع يده بعينيّ لأرى ما السحر الذي سيُخرِجه، لكن لخيبة أملي يُخرِج علبة صغيرة سوداء، يضعها على المكتب ويفتحها ليُخرِج منها نموذجًا مطاطيًا للجسم البشري، ليس الجسم البشري كله، لكن أجزاء محددة منه على وجه الدقة.

أشعر بإهانة خفية عند رؤية النموذج المطاطي، ويتضاعف شعوري حين يبدأ الشرح. يوضح لي كيف يسير الدم وكيف يحدث الأمر وما إلى ذلك. يشرح بلهجة عملية كأنه يقرأ من كتاب. لا بد أنه يقوم بهذا الشرح ألف مرة في الأسبوع، أما بالنسبة إليّ فكل شيء جديد وتعيس، ثم يقترح عليّ بعد هذا التمهيد الطويل الحل السحري من وجهة نظره:

– إحنا نركب دعامة.

يقولها، ثم يصمت منتظرًا تعليقي.

أسأله في دهشة:

– الدعامة أعرف إنها للقلب. أنا قلبي تمام على حسب علمي.

يبتسم الطبيب نصف ابتسامة:

– لأ، الطب اتطوّر، الدعامات لكل الأعضاء.

ثم يُخرِج تكملة للنموذج المطاطي، ويشرح لي كيف سيُركّب الدعامة، وطريقة عملها، واحتياطات استعمالها، ويؤكد على كونها أحدث ما وصل إليه الطب، ويكمل بحماس:

– اسمها دعامة، يعني بتدعمك، إنت محتاج دعم. هي بتشتغل بطريقة ميكانيكية، شغالة لوحدها مش مستنية منك أي مجهود ولا تتأثر بالحالة النفسية، فمفيش احتمالية فشل.

طبعًا هو يتعمد ذكر عدم تأثرها بالحالة النفسية لأنه يعرف أني أُحمّل نفسيتي وضغوط الحياة مسؤولية فشلي، وأني لم آخذ خطوة

العلاج إلا بعد أن سمعت مروة «تبرطم» وهي تعيد ارتداء ملابسها. كان صوتها منخفضًا، لكن أمكنني سماع سؤال «ومالها حالتك النفسية بقى؟» وقتها عرفت أن الوقت قد حان للعلاج. صحيح أنها اعتذرت بعدها، لكن رسالتها كانت قد وصلت بالفعل. وطبعًا استغرق تنفيذ قرار العلاج مني سنوات. لكن حماس الطبيب يقلقني. هو لن يتحمس بهذا الشكل لتعاطفه مع قضيتي؛ فهي ليست حالة فريدة من نوعها، لكن حماسه لأن مبلغًا محترمًا من المال سيدخل جيبه بلا شك، لهذا أظن أن هذا هو وقت السؤال المهم:

– طيب أخبار سعرها وتكلفة التركيب يا دكتور؟

نطق الدكتور الرقم المكون من عدة آلاف ببساطة شديدة وكأنه يقول خمسة جنيهات مثلًا. رقم يساوي ثمن سيارة فيرنا منذ عدة سنوات. لاحظ صمتي فاسترسل:

– لكن هترتاح من الصداع دا العمر كله.

أطلب منه مهلة للتفكير، فيوافق بأريحية واطمئنان مَن اعتاد هذا الرد ويعرف أن الناس ستوافق عاجلًا أو آجلًا، ويضرب الجرس المجاور لكرسيه، فأعرف أن وقت الانصراف قد حان.

خرجت من عنده عازمًا على عدم العودة إلى المنزل، ولم أرد على مكالمات مروة. أود التفكير بصفاء في مقترح الطبيب، ولست في حالة مناسبة للصدام معها، وهو ما سيحدث لأن هذا ما يحدث دائمًا مؤخرًا. آلاف الأسباب اليومية للشجار، لكن السبب الحقيقي معروف لي ولها.

ألاحظ أني دائمًا ما أكون أكثر عصبية في القيادة بعد كل زيارة للطبيب، أقل حركة من أي سائق تُشعِرني بالتهديد، وردود أفعالي تكون أكثر عنفًا بكثير. بعد آخر زيارة، ضربت سائق أجرة، وانتهى الأمر بنا نحن الاثنين في القسم؛ لأنه كان عصبيًا أكثر بكثير مما يستدعي الأمر. هل يعاني من المشكلة نفسها هو الآخر؟

وصلت إلى القهوة وجلست في مكاني المعتاد، وأحضر لي القهوجي الشاب الشاي دون سؤال. أشعلت سيجارة وأنا أفكر: لماذا أكون أكثر عنفًا؟ هل لأني لا أستطيع أبدًا التخلص من هاجس أن الجميع يعلم وأترجم كل إشارة وكل تصرف أنه نوع من السخرية الخفية مما أنا فيه؟ ولو كنت متوهمًا فعلًا، فبماذا يهمس القهوجي الآن مع الزبون العجوز؟ ولماذا ينظران إليّ؟ لعلهما يقولان: «انظر إليه، طول بعرض، على الفاضي!» يضحك العجوز، فيتوحش توتُّري، ويزداد يقيني بأنهما يتحدثان عني. أهم بالتحرك لبدء مشاجرة معهما، وقبل أن أقوم، أفطن أني سأبدو كأحمق حقيقي، ماذا سأقول؟ هل سأسألهما لماذا تنظران باتجاهي؟ هل أنا فتاة صغيرة تخاف من التحرش؟ ومن أين لي التأكد من أنهما يتحدثان عني فعلًا؟ هل أصبحت أعاني من البارانويا أيضًا الآن؟

تركت حسابي على الطاولة بعد أن تعكر مزاجي وفقدت قدرتي على التفكير بهدوء، وتحركت عائدًا إلى المنزل. ما دمت في كل الأحوال سأكون في مزاج سيئ، إذن فليكن هذا في التكييف على الأقل.

فتحت الباب في هدوء وألقيت التحية على مروة، وطلبت منها

إعداد الغداء متعللًا بالجوع الشديد، وأنا لست جائعًا إلى هذه الدرجة في حقيقة الأمر؛ فقد أفقدتني أحداث اليوم شهيتي، لكنها الطريقة التي أضمن بها أقل تواصل ممكن معها؛ لأنني أعرف أن أي محادثة، حتى لو كانت عن طيور اللقلق، ستنتهي بمشاجرة، لهذا اخترعت روتيني الخاص لتجنُّبها. ننهي الغداء المتأخر، وأشاهد مباراة أدعي أنها مهمة حتى لو كانت مباراة مركز شباب دكرنس مع شربين، ثم أذهب للنوم استعدادًا لليوم الجديد.

دخلت الغرفة، فلاحظت على الفور شيئًا متغيرًا في مروة، تضع أحمر شفاه لامعًا، وترتدي قميصًا مكشوفًا، ورائحة عطرها تفوح في الغرفة. تظاهرت أني لم ألاحظ شيئًا لقطع الطريق على انتهاء الليلة بالنهاية الحزينة المعتادة في السنوات الأخيرة نفسها. أطفأت النور، ونمت على جانبي الأيمن لتجنُّب رؤية وجهها. شعرت بيد مروة تتلمس طريقها ببطء متردد إلى كتفي. لم أُظهِر استجابة، فنقلت أصابعها إلى شعري تعبث به. أبعدت نفسي قليلًا عنها، متمنيًا لها ليلة سعيدة. تظاهرت أني أمسك بالهاتف لضبط المنبه، وأرسلت رسالة واتساب لطبيبي، أطلب منه حجز أقرب ميعاد لإجراء العملية.

الحكاية الحادية عشرة

منديل سماوي تنقصه وردة

قصة عادية جدًا

«يحكيها صاحب الحفل اليوم»

ساعة ما يودعوني،

بيناموا في عيوني

وطول الليل يا ليل،

في قلبي يدبدبوا

– فؤاد حداد

أعيد مسح العدسات، وقراءة دعوة حفل التقاعد للمرة التاسعة ربما. ورقة بيضاء لامعة من الكرتون المقوى، عليها ختم الهيئة وبعض النقوش الساذجة في الأركان. شاهدت مثل هذه الدعوات عشرات المرات من قبل، لكن للمرة الأولى أحفظ كل تفاصيلها عن ظهر قلب؛ فهذه المرة تختلف عن حفلات التقاعد التي حضرتها مرارًا في السنوات الأخيرة. ربما هي مثل كل الحفلات بالنسبة إلى الجميع، لكنها على الأقل تختلف بالنسبة إليّ؛ لأن هذه ليلتي أنا.

لسنوات طوال مضت، أعد كل يوم خطتي لهذه اللحظة وما بعدها، وكيف ستبدو. يمكن بقليل من المبالغة القول إني عشت حياتي كلها بنفسية المسافر في انتظار لحظة الوصول، في انتظار لحظة تقاعدي

وبداية جني الثمار.

في الواقع، أشعر ببعض الخجل حين أقول هذا بصوت عالٍ، لكن، للمرة الأولى منذ سنوات، لم أستطع هذه الليلة النوم جيدًا من فرط الترقب. تخيّل منظر رجل ستيني، يعصف به الحماس والقلق بعد كل ما رأى. يبدو هذا غريبًا، وربما مثيرًا للسخرية بشكل ما؛ فالحماس صفة لا تليق إلا بالصبا، أعي هذا جيدًا، لكن يبدو أن العجوز يتحمس أحيانًا هو الآخر.

أراجع قبل النوم ترتيب كل شيء في عقلي: البدلة البنية جاهزة، والحذاء الجديد في علبته، والكرافت التي اختارتها نادية بنفسها، والمنديل السماوي الذي طرزت ورداته هناء بيدها قبل عشر سنوات ولم يمهلها القدر لتكمل تطريز الوردة الأخيرة، لكني احتفظت به من يومها دون أن أستعمله، كنت أدخره لهذه اللحظة تحديدًا، والشراب النبيتي الذي لم أُخرِجه من غلافه بعد، وفرشاة الشعر، وكِريم التصفيف الجديد.

والأهم من كل ما سبق أني أخيرًا توصلت إلى صيغة نهائية لخطابي الأخير في المبنى الرمادي العملاق. في البداية، سأطلب منهم الترحم على الأصدقاء القدامى كما تقتضي الأصول، ثم سأتحدث عن الموضوع الأهم لهذا اليوم: عني؛ فمنذ زمن طويل، ربما منذ وفاة هناء، لم تُتَح لي الفرصة قط لأتحدث عني، دائمًا يكون الحديث عن مشكلات الآخرين أو تفاصيل العمل أو حتى حالة الطقس، أي شيء إلا أنا، وهذه هي اللحظة التي لن يلومني أحد حين أتحدث عن نفسي.

ولن تكون خطبة تقاعد تقليدية ككل الخطب الأخرى، بل ستكون صادقة حقيقية؛ فسأحكي عن الأيام التي أحببتها في هذا المكان، والأيام التي كرهتها أيضًا، وسأحكي عن لحظة قدوم نادية إلى العالم التي فاتتني لأنني كنت أعمل، وعن الأيام التي غلبها النوم على المقعد وهي تنتظر عودتي وترفض في عناد الذهاب إلى فراشها قبل رؤية «بابا»، وطبعًا سأتحدث عن الأيام التي تلت وفاة هناء، والتي لم يكن رصيد إجازاتي كافيًا وقتها لأنهي حزني كله عليها. كنت قد أنهيت معظمه هذا العام في آخر رحلة إلى الغردقة جمعتني بها، ولم يكن لي إلا خمسة أيام أنهي فيها حزني عليها لأن العمل لن ينتظرني، والآن، حان الوقت لأعيش كل شيء لم أعشه، ولأتذوق على مهل كل حزن فاتني، وكل فرح مررت به سريعًا. أظن أني حتى كنت أتنفس بسرعة دائمًا؛ لأنه لا يوجد وقت. والآن، يمكنني أن أتنفس بعمق وببطء. توقفت أفكاري عند هذه النقطة وغلبني النوم.

لم يكن نومًا عميقًا على الإطلاق كما قلت. في سني هذه، لا يمكنك في العموم أن تحصل على نوم عميق، لكن هذه الليلة كنت أستيقظ كل نصف ساعة، وتراودني الأحلام التي تختلف في كل شيء وتتغير أحداثها، وتتفق فقط في حضور هناء فيها جميعًا. استيقظت أهدأ نفسيًا؛ لأني عددت وجود هناء في أحلامي لفتة لطيفة منها لمشاركتي هذا اليوم.

استيقظت قبل الموعد المنتظر بعدة ساعات. أظن أن هذا هو أطول وقت استغرقته لارتداء ملابسي منذ بداية حياتي العملية. ما زال لديّ كثير من الوقت، فقررت إعادة خطبتي المنتظرة مرة أخيرة أمام المرآة. بعد أن أنهيتها بنجاح ساحق هنأت نفسي عليه، وتأكدت

أن المنديل السماوي يطل من جيب البدلة بصورة لائقة، نزلت من البيت، وانطلقت لمقابلة نادية وزوجها كما اتفقنا. «عريس والله يا حبيبي.» كانت هذه كلماتها الأولى فور رؤيتي. «معاش سعيد يا عم.» يقولها سامح زوجها في سماجة. أفكر في سؤاله هل وجد عملًا أم لا، وأفكر في توبيخه لتركه نادية عندي شهورًا طويلة دون سؤال، لكن أتراجع لأن وقتي لا يسمح. أبتسم له في سماجة أنا الآخر، قبل أن ندلف جميعًا إلى قاعة الاحتفال.

دقائق ويبدأ تقديمي. تمر معظم الكلمات على أذنيّ مرورًا خفيفًا دون أن أسمعها جيدًا؛ لأن صوت ضربات قلبي المتوترة تطغى عليها كأني سأواجه الجمهور للمرة الأولى في حياتي. وأخيرًا، أسمع اسمي، فأفطن أن لحظتي تقترب، وأتقدم في خطوات مسرعة إلى المنصة، بينما يستمر مقدم الحفل في الحديث عني. «كان مثالًا للموظف المجتهد و...» صوت دقات قلبي يرتفع ثانية ليقاطع حديثه، ونادية تجلس في الصف الأول وتبتسم مشجعة. كيف كانت ستبدو أمها لو منحها القدر عشر سنوات أخرى لتشهد هذه اللحظة؟ وقبل أن أعرف الإجابة، أجد أن دوري في الكلام قد حان.

أواجه الجمع متنفسًا بعمق، ثم أبدأ الحديث بصوت مرتجف من السهل ملاحظته:

إلى روح الذين فارقونا... (ألمح أحدهم في الصف الثاني يعبث بهاتفه) أطلب منكم الوقوف والترحم... (في الصف الثالث يتهامس أحدهم مع زميله، وبجوارهما تصلح زميلة زينتها في مرآة صغيرة) وفي البداية أود أن... (ألمح سامح زوج نادية يتململ في مقعده)،

فجأة تضربني حقيقة مرعبة، كأنها لحظة التنوير في فيلم متوسط المستوى. أنا سأكشف جزءًا من روحي لهؤلاء السادة الذين يستمعون بنصف تركيز، ويرغبون في القفز إلى الفقرة الأهم، وهي تناول الغداء الذي تتسرب رائحته ببطء إلى أنوف كل من في القاعة. في الوقت الذي أدرك فيه هذا، تتلاشى الوجوه جميعها، وتبدأ الصفوف في التحول التدريجي إلى كتلة واحدة كبيرة، كتلة مختلطة من ألوان الثياب وروائح عطرية نفاذة، تكبر تدريجيًا لتحتل القاعة كلها، ثم ينبت لها يد تمتد لتلتف حول عنقي وتمنعني من الكلام أو حتى الاستغاثة. وتدريجيًا، تتضح ملامح الكتلة: وحش تظهر له مئات الأعين واحدة بعد الأخرى، وكلها تحدق فيّ بنظرة ساخرة لا مبالية. أحاول الهرب، لكن الفرار شبه مستحيل من كل هذه الأعين، وتُحكِم اليد العملاقة قبضتها على عنقي أكثر فأكثر، وصوت الهمس المتعالي هذا... من أين يأتي؟ لا فم للوحش، لكن الصوت يتعالى وكأنه ينتمي إلى مجموعة من الأفاعي الصغيرة تغني.

ثم تمتد يد رقيقة لتُبعِد الوحش بلمسة واحدة فتغمرني الدهشة، وأتيقن أن هذه يدها بالطبع. تلمس بها كتفي فيتغير المشهد، وأعود فجأة إلى القاعة لأواجه الزملاء ووجوههم الضجرة من طول صمتي.

«شكرًا لكم تكريمي. أتمنى لكم التوفيق واستمرار النجاح.» أقولها، وأستلم الدرع، وأسمع التصفيق، ويُهيأ لي أني سمعت تنهيدات الخلاص أيضًا. تقابلني نادية في فزع بعد نزولي من المنصة، متسائلة عن سبب صمتي الطويل وقصر خطبتي المبالغ فيه، فأطمئنها متعللًا بأني لم أعد الخطبة مسبقًا فلم أجد شيئًا يُقال،

فتبتسم وتخبرني: «بسيطة»، وتهنئني بالتقاعد متمنية لي العمر الطويل.

بعد السلامات والوداع الصادق من بعض زملاء العمل والكاذب من البعض الآخر، تلح عليّ نادية أن أذهب لأقضي معهم اليوم وربما الليلة.

– هناء الصغيرة مستنياك. حفيدتك مش واحشاك؟

– واحشاني، لكن اعفيني المرة دي، محتاج أرتاح.

تتفهم رفضي بعد إلحاح ووعد بالقدوم قريبًا، وأتفهم أن إلحاحها مصدره خوفها عليّ من مواجهة الفراغ وحيدًا، لكن هذا بالضبط ما أحتاج إليه.

نطلب السيارة التي ستحملني إلى المنزل. أركب وأضع الدرع الذهبية، التي تحمل اسمي واسم الهيئة، بحذر على المقعد بجواري، وتقطع السيارة الطريق القصير في دقائق معدودة، وتقف أمام الباب. أهم بدفع الأجرة، فيخبرني السائق أن نادية قد دفعتها بالفعل. أشكره، وأنزل متحركًا في اتجاه المنزل، مفكرًا في ما حدث اليوم. فجأة أفطن في فزع أني قد نسيت الدرع في المقعد الخلفي. أهم بالركض وراءه لينتظر، لكن قدميّ لا تساعداني، ويهرب صوتي فأعجز حتى عن مناداته. أنظر إلى السيارة وهي تبتعد في بطء، وأبتسم، وأغير اتجاهي لأشتري طعامًا للعشاء. سأطهو عشاءً مميزًا على نار هادئة على سبيل الاحتفال، وسأتناوله في هدوء أمام فيلم عربي قديم لا يحدث فيه شيء. أظن أن هذا هو الاحتفال الذي أستحقه بعد سنوات الجري الطويل. أرتاح إلى الفكرة، وأتمم على

المنديل السماوي للتأكد من أنه في مكانه، فأجد أن تطريز الوردة مكتمل هذه المرة.

الحكاية الثانية عشرة

قطار رقم 518

«تحكيها الفتاة التي لا تركب القطار عادة»

وأنا واخد أبونيه في النوح،

يا حبيبي في طلوع الروح

– فؤاد حداد

على مدار حياتي، وكأي مواطنة مصرية أصيلة، أمضيت نصف عمري في المواصلات باختلاف أنواعها وأشكالها. ورغم تنقلي الكثير بين المحافظات لأسباب تتعلق بالدراسة والعمل، فإن القطار هو أقل وسيلة مواصلات استخدمتها بين كل وسائل المواصلات الأخرى، وذلك لما يتطلبه من حجز وترتيب مسبق عادة لا يسمح وقتي به، ولأني أجد الأتوبيس أكثر سهولة وعملية. لكن اليوم، لأسباب لوجستية، ولعدم توافر أي وسيلة مواصلات أخرى لتأخر الوقت، اضطُرِرت إلى ركوب القطار الأخير وإلا كنت سأبيت ليلتي في شوارع الإسكندرية، وهو أمر لا أكرهه بصراحة، لكنه غير ممكن من الناحية العملية للأسف.

توجهت إلى المحطة محملة بأمل ضعيف أن يكون أحدهم قد غير رأيه في اللحظة الأخيرة وأعاد تذكرته، وبالطبع لم أجد. لا يوجد أي مكان في القطار المكيف كما هو متوقع، وسأضطَرُّ إلى ركوب القطار العادي للمرة الأولى في حياتي.

كنت متوجسة خيفة بطبيعة الحال وأنا أتذكر تحذيرات الأصدقاء وحكاياتهم، وأفلام السبكي عن القطارات المليئة بالغم والمشاهد الحزينة، لكن ليس أمامي أي خيار آخر. ومن باب إرضاء ضميري، سألت موظف التذاكر المكفهر:

– إيه الفرق بينه وبين المكيف؟

وكانت إجابته بليغة إلى درجة مدهشة:

– واحد فيه تكييف وواحد من غير.

فاقتنعت واطمأن قلبي، وقطعت التذكرة فورًا وهو ينظر إليّ بشفقة نظرة من نوعية «واضح أنها مرتك الأولى». أخذت مكاني على مقعد متهالك على الرصيف وتذكرتي في يدي، وبجواري عجوز ينام في مكانه في انتظار القطار، وأسرة من أم بائسة تحمل سلة من خوص واضح من رائحتها أنها تحتوي على طعام، وثلاثة أطفال في أعمار متقاربة يتسلقونها مثل القرود وهي لا تبدي أي رد فعل كأنهم غير موجودين أصلًا. لم يأتِ القطار في موعده بطبيعة الحال؛ فنحن لسنا في السويد هنا. واستغللت الوقت في البحث عن أي مكان يصنع قهوة صالحة للاستهلاك، طبعًا لن أجد اسبرسو هنا ولا أطمح إلى ذلك، فاكتفيت بقهوة تركية سيئة المذاق، ممنية نفسي بكوب كاموميل عملاق حين أصل إلى المنزل.

وصل القطار بسلامة الله بعد نصف ساعة من موعده، وهو إنجاز لا بأس به أتوجه بالشكر عليه إلى هيئة السكك الحديدية.

وقفت في مكاني على سبيل الاستعداد، وحملت حقيبتي الصغيرة

في يدي حين رأيت القطار يقترب من بعيد. وفجأة، قفز شخص ما دون تردد أمام القطار بالضبط، وانخلع قلبي من مكانه لأني ظننت أني بصدد محاولة انتحار مرعبة. وقبل أن أنطق أو أطلب أن يغيثه أحدهم، وفي ظاهرة غريبة، قفز عدة أشخاص في طريق القطار مثله تمامًا، واللافت هو حالة عدم الاهتمام العامة. هل اعتاد الناس حالات الانتحار؟ هل هذا طقس ديني مثلًا من نوع ما يعرفه الجميع وأجهله أنا؟ هل هو تقليد خاص بالإسكندرية؟ انعقد لساني وأنا أشاهد القطار يقترب والناس أمامه ولا أحد غيري يهتم. من الواضح أني لست في كابوس؛ فمزيج الروائح في المحطة يخبرني أني بالتأكيد في الواقع، فما الذي يحدث بالضبط؟

دقائق بسيطة وفهمت حل اللغز: هذه طقوس الاستعداد لدخول القطار المحطة؛ فقد تدافع كل من قفز مسبقًا قبل وقوف القطار بالضبط، وقفزوا داخله من شبابيك الجهة المقابلة للرصيف طمعًا في اللحاق بمكان. وقبل أن أدرك ما يحدث أصلًا، كان القطار قد امتلأ عن آخره بالفعل؛ ففي الدرجة العادية، لا تُقطَع التذاكر بناءً على عدد معين أو سعة القطار، فأنت ستذهب في أي وقت وستجد تذكرة مهما كان العدد. هذه هي مسؤولية المحطة وتقوم بها على أكمل وجه. لكن أن تجد مكانًا داخل القطار بهذه التذكرة فهي مسؤوليتك أنت.

دخلت القطار بصعوبة بالغة وبكثير من الحذر، بينما أحاول جاهدة حماية جسدي بيدي واستخدام الحقيبة كدرع. بصعوبة بالغة، وجدت مكانًا للوقوف في العربة المظلمة، حيث لا توجد إضاءة سوى كشاف الهاتف المحمول. مرت عدة دقائق والعدد يزداد بصورة

مستحيلة منطقيًا، كل قواعد الرياضيات تؤكد استحالة وجود هذا العدد في هذه المساحة، لكن هذا ما حدث.

انكمشت في مكاني أشاهد مشاجرات عنيفة حول أحقية الجلوس بينما تتردد كلمة «معايا حريم» من حين إلى آخر، وأنا أزداد انكماشًا في مكان وقوفي، وأدور بعينيّ تحسبًا لأي حركة غدر من المحيطين. شخص ما نبيل لاحظ ذعري وقرر أن يتنازل لي عن مقعده. لم أصدق في بداية الأمر؛ هذه شهامة أكثر من اللازم. أخبرته أن «المشوار طويل»، «اتفضل حضرتك»، «أربع ساعات». حذرني من أن الزحمة ستزداد، والوقوف لن يصبح خيارًا آمنًا. جلست، وحدث ما قاله بالفعل، فشكرته من كل قلبي، وكلما زاد الزحام شكرته مجددًا.

مرت دقائق، بينما أشار الرجل العجوز الضئيل الجسم في المقعد المجاور لي للرجل الشهم بالجلوس مكانه. «أنا هطلع أنام.» نظرت إلى السقف ولم أفهم في بداية الأمر أين سينام بالضبط، ثم أدركت أنه سينام في المكان الصغير المخصص في الأصل للشنط. لا مكان هنا للحديث عن رهبة الأماكن الضيقة ولا المغلقة، ولا مساحة للأرق، ولا ملاحظة لصلابة الحديد تحته، ولا انزعاج من الأصوات المحيطة، نام العجوز باستغراق كأنه وحيد في غرفة نومه!

الرائحة لا تُطاق، لكن الإنفلونزا –الحمد لله– تسهم في تخفيفها. مزيج من رائحة العرق والسجائر والسوائل الجسدية المختلفة، ولكن أخيرًا، والحمد لله، يبدأ القطار بالتحرك ببطء وضجر. وأستند بيدي إلى النافذة في حرص بحيث لا يلمس جلدي أي شيء، بينما

يُخرِج الرجل في المقعد المقابل يده كاملة منها. يمر قطار مسرع في الاتجاه الآخر، فأرتعب وأسحب يدي ويفلت قلبي عدة دقات. ألاحظ في دهشة أن الرجل، الذي يُخرِج يده كاملة، لم يجفل حتى. ويتكرر الموقف طوال الطريق وقد وضع رأسه نفسه خارج الشباك واستغرق في النوم، ولا يوقظه حتى مرور القطارات المجاورة لرأسه تمامًا، بينما ينتابني الفزع في كل مرة كأنها أول مرة.

ينزل صاحب المقعد في محطة ما من المحطات الألف التي توقف فيها القطار على مدار الطريق، وأكرر شكره من كل قلبي، ليحل محله رجل عجوز يلعب كاندي كراش في استمتاع واضح. وفي المحطة التالية، ينزل الرجل النائم ليحل محله مراهق خفيف الحركة، بينما ينام صاحبه مواجهًا له في مكان وضع الحقائب في الصف المقابل، كل منهما متكئ على يده كأنه في جلسة سمر ما، يتحدثان بلكنة أظنها صعيدية، وبصوت عالٍ للتغطية على صوت الهواء.

«هغني لك موال .. اسمع ده.» وبصورة مفاجئة، يبدأ في الغناء بصوت جميل:

«ياللي إنت عامل كبير

عامل كبير على مين

انزل وشوف أصلك

واللي سواك مين

ياما ناس عملت عباقرة

ودلوقتي في التراب نايمين»

يظل صاحبه على صمته، فيعاتبه: «إنت مش معايا» بلهجة أظنها صعيدية. لا أسمع رد صاحبه على عتابه، ويطلب المغني شايًا من بائع يمر بالعربة:

– بكام دا؟

– ٣ جنيه.

– في الجطر بتاعنا بـ٢ جنيه، بس ماشي. هاته محني.

أفطن في فزع أنه يشرب «شاي وسيجارة» فوق رأسي حرفيًا، وأتخيل كل ثانية الشاي الساخن وهو يسقط في عيني ويشوه وجهي. لكن اطمئنان المحيطين ولا مبالاتهم تنتقل إليّ تدريجيًا. لا يوجد أي شخص هنا قلق سواي. أحاول طمأنة نفسي؛ يبدو أنهم يعلمون ما يفعلون.

أفكر في أن الحياة تجد طريقها دائمًا، وألاحظ أن إدراكي للرائحة الكريهة قل مع الوقت، وأن يدي استندت تلقائيًا إلى المقعد وتخليت عن حذري السابق. أنا أيضًا تكيفت مع ما حولي، وارتحت أكثر في جلستي، إلى درجة أني أخرجت الهاتف وأجبت على رسالة سلوى من اليوم السابق، متسائلة عن الحلم الذي ذكّرها بي بعد كل هذه السنوات الطوال.

لكن، رغم التكيف والاعتياد النسبي، لا مفر من إدراك أن المشهد كله يبدو كابوسًا. الظلام والزحام والروائح المختلفة المختلطة برائحة السجائر الرخيصة الكريهة، كأنها قصة تعيسة ما يحكيها طه حسين في مذكراته، لا ينقص المشهد سوى حلاق الصحة. قلبي ينفطر

على كل ما رأيته، وأخجل حتى من التصريح بأن قلبي ينفطر. يبدو لي الأمر مبتذلًا كأنه تصريح لطلبة الجامعة الأمريكية حول «حملة تلوين العشوائيات»، لكن لا أستطيع منعه من أن يتحطم. التجربة للمرة الأولى ثقيلة، حتى على فتاة من الطبقة المتوسطة تركب المترو ووسائل النقل العامة، لكن هذا القطار يختلف!

أحاول مقاومة حبل الذنب الذي يلتف حول رقبتي لسبب مجهول، كأن تعاستهم مسؤوليتي. يقترب القطار من محطة نزولي، وأنا أتأمل في الوجوه التعيسة الظاهر عليها سوء التغذية، وأحاول لملمة قطع قلبي المتناثرة تحت أقدام الواقفين، بينما أفكر أنه لا عجب أن الفقراء يدخلون الجنة أولًا؛ فقد قضوا حياتهم في البحث عن مقعد في أي قطار، ولم يجدوا مقعدهم في الدنيا.

الحكاية الثالثة عشرة

الناجون من مدينة نصر

«تحكيها الفتاة التي كانت تحب الأمطار»

القاهرة قالت وقولها الحق،

أشهد بإنك يا ابن آدم جميل

باني البيوت على بعضها بتميل

في الجو ريق الإنسانية يسيل

– فؤاد حداد

أقف في الأتوبيس المزدحم في شموخ، شموخ يليق بشخص في الأصل يعد نفسه من طبقة راكبي سيارات الأجرة. صحيح أن هذا يقتصر على أول عشرة أيام من الشهر، لكنها كافية لأغذّ نفسي من علية القوم، لكننا اليوم في آخر الشهر، فألجأ إلى الأتوبيس كبديل إلى حين نزول المرتب. لا بد أنك كمواطن مصري تعرف ما أعني.

يتهادى الأتوبيس ببطء كعادته ليعطي فرصة لمن يود النزول أو الصعود في أي وقت، وأنا أحاول الحفاظ على توازني بينما أتأمل من النافذة البعيدة مفكرة في حلم الليلة السابقة ولقائي الغريب بهاجر. ذكّرني هذا أني أرسلت إليها رسالة فور أن استيقظت، لكنها رأتها ولم تجبني بعد. رفعت رأسي من الهاتف إلى النافذة مرة أخرى، لأجد أن المطر بدأ في الانهمار دون أي مقدمات، وأنا أحب المطر بصراحة حبًا عميقًا منذ الطفولة، وفي كل مرة أنبهر أن السماء يسقط

منها الماء فيغسل كل شيء، ونحن نتعامل مع هذا كأنه حدث شديد العادية، بينما هو معجزة متجددة.

بدأ المطر يشتد، فاستبشرت خيرًا وأنا أتخيل نفسي، بعد أن أتم رحلة العودة الطويلة، في نهاية اليوم وأنا أجلس في فراشي الدافئ أتناول السحلب وأسمع صوت المطر وأشم رائحته التي تتسرب برقة من الشباك. صورتي في خيالي تبدو كأنها صورة من تصميمات صفحات الوحدة على فيسبوك، التي تكون لفتاة تخفي يدها بكم القميص الطويل وتحتضن كوب القهوة. طبعًا لا أظن أن شكلي وأنا «متكلفتة» على الفراش يبدو بهذه الرقة، لكني أحب تصوُّر هذا على أي حال.

وصلت إلى وجهتي الأولى، ومن المفترض أن أركب منها الأتوبيس الثاني لهذا اليوم. أبطأ الأتوبيس من سرعته البطيئة أصلًا، ففهمت الإشارة ونزلت فورًا، لأجد مفاجأة جميلة في انتظاري، وهي أن المطر لم يعد ينزل من السماء فقط، بل أصبح أيضًا شلالات تندفع من الحوائط، وينابيع تنفجر من الأرض، في منظر أقرب إلى المعجزات لا يحدث في عصرنا هذا —حدث في عصور أخرى— إلا في مدينة نصر.

وفي تصاعد غير مفهوم للأمور في أي مكان في العالم، لكنه مفهوم تمامًا في سياقه، شُلّت الشوارع تمامًا؛ فالسيارات الصغيرة والمشاة غُمِروا بالماء، وصمدت السيارات الأكبر حجمًا والأتوبيسات. وليكتمل المشهد الدرامي الرائع، قرر هاتفي أنه هذا الوقت المثالي ليموت تمامًا.

أقف أنا وعشرات المواطنين التعساء في الفراغ، ننتظر أن تنقذنا معجزة أو تحملنا الرياح. جاء الإنقاذ في صورة رجل طيب وزوجته، وقفا بسيارتهما وعرَضا عرضًا حصريًا للبنات فقط (مميزات نادرة للكروموسوم إكس)، وذلك لأن الرجال دائمًا سيجدون حلًا ما. وبالفعل ركبت معهما أنا وطالبة جامعية وسيدة أخرى لا تكف عن ترديد «سترك يا رب». وهو فعلًا رجل طيب؛ ففي منتصف الطريق، قابلنا شابين على دراجة نارية، تتساقط المياه فوق رأسيهما ويعصف بهما الهواء. ودون تردد، أخرج الرجل «الشمّاسة» وأعطاها لهما. «احموا دماغكم من المطر»، وبعدها دعا بصوت منخفض لكن مسموع: «أظلّنا بظلك يا رب.»

جميل طبعًا، لكن الأمور لا تسير بهذه السهولة. السيارة قديمة، والطريق ينخفض تدريجيًا، والسيارات تتعطل الواحدة تلو الأخرى كأنها ضحايا العدوان. الاستمرار أصبح مستحيلًا، والوقوف خطيرًا، والرجل الآن مضطر إلى أن يعود أدراجه ولا يكمل الطريق. شكرناه ونزلنا، ووقفنا على جزيرة في منتصف الشارع وسط نهر الأمطار المختلط بالمجاري، وما زالت السيدة تردد «سترك يا رب».

المشهد الآن أني أقف في الجزيرة في منتصف الشارع، كأني روبنسون كروزو، تحاصرني المياه من كل الاتجاهات، ولا أستطيع حتى عبور الشارع لأمشي على الرصيف الكبير؛ فالطريقة الوحيدة لعبور الشارع قامت بها بنت شجاعة، إذ لبست كيسين بلاستيكيين في قدميها وربطتهما بإحكام، و«هوب» قفزت في الماء، لكن هذا أكبر من قدراتي. لا يزال هاتفي ميتًا بطبيعة الحال، وأنا أقف في الفراغ أجهل تمامًا ماهية الخطوة القادمة.

مرت عربية «نص نقل»، فقفز نحو ١٥ فردًا في صندوقها دون مقدمات ودون اعتراض السائق بالطبع، واقترح الشخص في المقدمة أن يأخذوا «صورة سيلفي» لتخليد الذكرى العجيبة. وتحمس الجميع للاقتراح، فوقفت أشاهد ١٥ فردًا لا يعرف أحدهم الآخر، ويقفون بملابس مبللة في صندوق سيارة نقل يجهلون طريقها، يبتسمون في بلاهة محببة إلى النفس للكاميرا، بينما يزداد عدد الناس الذين تتعطل سياراتهم بسبب دخول المياه، فيخرجون منها ويسبحون حولها وصولًا إلى الرصيف، وعدة مراهقين يحملون دراجاتهم على ظهورهم خوفًا عليها من التلف بدلًا من أن تحملهم دراجاتهم، وثمة مجموعة من الشباب قرروا التعامل مع الحدث كأنه مصيف جمصة السياحي، فظهرت على الساحة فانلات الإمبراطور البيضاء بعد أن خلعوا قمصانهم المبتلة.

وأنا ما زلت في مكاني عاجزة عن التصرف، أتأمل الأنهار الجارية من تحتي والشلالات المندفعة من الحوائط وشحن الهاتف المنتهي وغربتي وأحزاني. وللمرة الأولى في حياتي أختبر شعور «أنا مش شحاتة والله، بس أنا مش من هنا وفلوسي ضاعت»، حين اضطُرِرت إلى طلب الهاتف من أحد الواقفين لأُطمئِن من في البيت أني لم أمت بعد لكنني محتجزة وسط المياه في قلب العاصمة.

أخيرًا، ولأن الصبر مفتاح الفرج، جاء الفرج في صورة رجل ليبي شهم يقود سيارة عالية –لا أعرف اسمها– لكنها تتسع لنحو ثمانية أفراد، وتمكن من الصعود بها على الجزيرة في المنتصف؛ لأن من المستحيل طبعًا الوقوف بجوار الجزيرة كما هو الطبيعي، لأن ذلك

سيتطلب منك عبور بحر صغير للركوب. وركبنا معه بعد شكره على العرض الكريم، ثمانية أفراد لا يعرف بعضهم بعضًا: فتاة منتقبة، ورجل عجوز لا يكف عن إصدار التعليمات، ومراهق خليجي مذعور، وسيدة أربعينية لا تكف عن المكالمات، وعدد ٢ موظفين، وأنا. ولأن الله رحيم فقدّر أن وجهتي في طريقه، فوصلت أخيرًا بمعجزة. وصلت بعد أربع ساعات ونصف إلى وجهة يأخذ طريقها في العادة عشرين دقيقة.

شحنت الهاتف في مطعم صغير، والأهم أني تناولت طبقًا من الدجاج الساخن طبعًا، وتأهبت لبدء الجولة الثانية وهي رحلة العودة إلى المنزل.

قررت تجربة فتح تطبيق «أوبر»، صحيح أنه آخر الشهر، لكن للضرورة أحكامًا. وجدت أن المشوار، الذي سيتكلف نحو خمسين جنيهًا في الظروف الطبيعية، سيتكلف نحو ثلاثمئة جنيه وقربانًا للسائق نظرًا إلى ظروف الطريق، فكان عليّ أن أختار بينه وبين مستقبلي، فاخترت مستقبلي بالطبع.

توكلت على الله، وبدأت الألعاب البهلوانية وأنا أحاول الحفاظ على توازني بينما أمشي على طرف الرصيف والكباري المرتجلة التي صُنِعت من جذوع الأشجار والحجارة، ويمشي بجواري مئات الناس –حرفيًا لا مجازًا– في قطعان كأنه يوم الحشر، ولا تزال السيارات واقفة كأنها وحوش أحيلت إلى المعاش وفقدت قدرتها على الحركة. أخيرًا، وجدت حافلة تقف في منتصف الطريق، فصعدت في حذر. وكما هو متوقع، يوجد ١٨ ألفًا من الركاب، فحين أقول صعدت ففي

الحقيقة أعني أنني وقفت على الباب لأنه المكان الوحيد الخالي. نظرت في اتجاه السائق فوجدته متكئًا ويُخرِج قدمه من الشباك وقد أغلق المحرك، وكل دقيقة أُضطَرُّ إلى النزول لإفساح الطريق لشخص ينزل ليُحضِر علبة مياه غازية أو كيس شيبسي أو أي شيء يُؤكَل، ويعود ثانية إلى الأتوبيس حاملًا غنيمته ليتناولها في هدوء كأننا في حديقة الأسرة.

بدأ يتسرب إلى نفسي إحساس بوجود نوع من العِشرة والود بين الناس لسبب مجهول، وأن الأريحية ونوعية الأحاديث لا توحيان بأنهم مجرد عابرين بعضهم في حياة بعض، فسألت عجوزًا منهكًا يبدو عليه الوقار:

– وإنتو واقفين من كتير يا حاج؟

قال:

– أنا هنا من الساعة ٣.

وكانت الساعة وقت السؤال هي السابعة، فسألت شخصًا آخر:

– وإنت؟

قال:

– هنا من ٢ ونص.

أصبحت الخطة واضحة، وهي أننا سنظل في هذا الأتوبيس إلى الأبد، وغالبًا ستنفتح في أي وقت بوابة على عالم آخر أو زمن آخر وتكون هذه هي النهاية، فنزلت في هدوء كما صعدت، أهيم على

وجهي وسط الشوارع الغارقة.

التحدي الآن هو الوصول إلى أي وسيلة أعود بها إلى منزلي. بعد كثير من مكالمات المعارف والأصدقاء، وجدت بمعجزة إلهية صديقة بسيارتها طريقها طريقي نفسه. مشيت نحو ساعة إلا ربع وسط القطيع الهائم على وجهه، حتى وصلت إليها على أحد الكباري، واحتضنتها في فرح كفرح الناجي من الغرق، وركبت معها السيارة، لنظل واقفتين فوق الكوبري لمدة ثلاث ساعات، ثلاث ساعات فوق كوبري يستغرق في الظروف الطبيعية سبع دقائق. كنا قد أنهينا كل الكلام في أول ساعتين بالفعل، وجلسنا في صمت مربك نشاهد ما حولنا. كان الجميع قد أغلقوا محركاتهم بالفعل في استسلام حزين، وبعضهم نزل للتمشية تجنبًا لجلطات الساق من طول الجلوس. ويبدو أن أحدهم فقد صبره، فأغلق سيارته موديل السنة وتركها في منتصف الكوبري دون مبالاة، وقرر الرجوع إلى بيته ماشيًا في ما يبدو. لا يوجد مخرَج، وأشعر أني علقت إلى الأبد، لا يمكنني العودة ولا الاستمرار، المخرج الوحيد أن يختطفني طائر العنقاء من السماء.

يزداد توتر الناس وعصبيتهم بمرور الوقت، وأصبح الجميع خارج السيارات بالفعل، وتوجد كثير من المشاجرات الجانبية دون سبب حقيقي غير فقدان الأعصاب من طول الانتظار، وخرجت بعض الهواتف، قرر أصحابها الاستغاثة في بث مباشر عبر الفيسبوك. فتحت راديو السيارة بحثًا عن بعض التسلية، لأجد مذيعة خنفاء تتساءل: «أين ذهبت أخلاق المصريين؟ أين ذهبت السماحة والطيبة؟» سؤال منطقي طبعًا. ترى أين يا سيدتي الجميلة؟ لماذا يغضب الناس في رأيك؟ تفتكري ليه الناس غضبانة؟ وبعد أن أنهت

المذيعة وصلة الحسرة على أخلاق المصريين، تركتنا مع أغنية «يا حبيبتي يا مصر»، ليكتمل المشهد السيريالي الرائع.

بعد أربع ساعات أتأرجح فيهم بين بوادر الانهيار العصبي وبين الضحك الهستيري، جاء الفرج في صورة اتفاق جماعي وجهود تنظيمية شعبية بحيث ينعكس اتجاه سير الكوبري، ويعود الجميع أدراجهم ثم ينحرفون من طريق آخر. يمكنك طبعًا تخيُّل كم استغرقت هذه العملية من وقت وجهد. وبتدخُّل إلهي، وصلت بيتي قبل صلاة الفجر مباشرة. حضنت صديقتي حضنًا طويلًا صادقًا يجمع بين الامتنان والفرحة بالخلاص، ومنعت نفسي من تقبيل تراب مدخل المنزل والبكاء؛ لأن المشهد سيكون دراميًا أكثر من اللازم. الحمد لله، نجوت من مدينة نصر!

الحكاية الرابعة عشرة

السيدة التي تبحث عن البشر في معرض الكتاب

«تحكيها الفتاة التي جاورتها في اليوم الثاني للمعرض»

في الماضي اللي ما له رجوع

بطّلت البكا المسموع

وأنا لسه في عيني دموع

أنظر لك وقلبي يطب

وتقول يا قمر ليه أبيض

ويقول لك عيوني شابت

بتدور على الأحباب

– فؤاد حداد

أقف وسط أرض المعارض حاملة بعض كتبي على كتفي، وأجر البقية ورائي آملة في ألا أكون أنا الحمار الذي يحمل أثقالًا، بينما الشمس فوق رأسي غاضبة على غير عادتها في هذا الوقت من العام، وقدمي تستغيث بعد ثلاث ساعات من المشي المتواصل، والتنقل بين دور النشر، وممارسة هوايتي السنوية: شراء كثير من الكتب التي أعلم وربما الناشر يعلم والكاتب أيضًا يعلم أني لن أقرأ منها إلا القليل. لكنها العادة، ومن الصعب تغيير عادة، خصوصًا أنها بدأت منذ

كنت في الابتدائية تقريبًا، حين كنا نسافر إلى المعرض معًا كعائلة، ونعود إلى المنزل بغنائمنا من «المكتبة الخضراء» ومنشورات عبد الحميد جودة السحار. تغيرت نوعية الكتب التي أقتنيها الآن بطبيعة الحال، لكني لا أتخلى عن التقليد السنوي حتى وأنا أعلم أني لم أعد أقرأ إلا القليل.

أدور بعيني وأنا ما زلت واقفة في مكاني، باحثة عن أقرب مكان يصلح للجلوس والراحة قليلًا، استعدادًا لبدأ الجولة الثانية من البحث. رتبت في رأسي سريعًا الأماكن المتاحة: يوجد مقعد وحيد ظليل يقع بجوار عاشقين يتهامسان، لو اخترته فسأقطع خلوتهما وأصبح عزولًا غير مرغوب في وجودي، وهو ما لا أريده طبعًا. وثمة مقعد فارغ آخر، لكنه أبعد قليلًا، وعلى المقعد المجاور له تجلس أم معها طفلان، يقلد أحدهما صوت الأسد والآخر يقلد صوت الفيل، ويتنافسان في حماس على الصوت الأعلى وبالتبعية اختيار الحيوان الأقوى، وبصراحة رأسي بالفعل فيه ما يكفيه من الصداع فلا تنقصني أصوات الحيوانات، وذلك لا يمنعني من القول إن صوتي يذهب إلى فريق الفيل بالمناسبة. ويقع على يميني مقعد آخر تحتله عائلة مصرية يقومون بنشاط أسري تقليدي: الزوج ينهر زوجته بصوت يوشك أن يهد كل دور النشر على من فيها، وهي تحاول مداراة خجلها والتوسل له بأن يخفض صوته، وأنا بالطبع لست عديمة الإحساس لأجلس بالقرب منهم وأزيد حرجها، ولا أملك غير الدعاء لها بالصبر.

في النهاية، وجدت ضالتي؛ مقعد هادئ تجلس عليه سيدة، خمنت أنها خمسينية، في صمت. وجهها عليه بقايا ملاحة قديمة لم تُخفِها

بعض الكيلوات الزائدة، والبنطلون السماوي الأنيق والمعطف الجملي المطابق للون الإيشارب ينبئان عن ذوق راقٍ.

توجهت إلى المقعد، ووضعت كل ما أحمل على الأرض، وجلست بجوار السيدة ذات المعطف الجملي في هدوء، وبحرص بحيث أحافظ على مسافة بيننا، خوفًا من اقتحام خلوتها أو إزعاجها. ومرت دقيقة وكلانا ننظر في صمت في الاتجاه نفسه، ثم التفتت إليّ دون مقدمات:

– ما تيجي نشجع بعض ونروح نصلي الضهر لأني مش قادرة أمشي لوحدي؟

وافقت دون تردد رغم إرهاقي، وبدأنا في الحركة ببطء باتجاه المسجد. وفي الطريق سألتني:

– إنتِ منين؟

أجبتها:

– الإسماعيلية.

بدا على وجهها الانبهار.

– جاية مخصوص تجيبي كتب؟

أشرت برأسي علامة على الإيجاب.

فانطلقت في الكلام:

– أنا من القاهرة. أظن في المدن الصغيرة محتفظين بقيمهم والعادات أكتر. أنا عشت طول عمري هنا ما سافرتش أي بلد.

ثم صمتت كأن هذه الفكرة أحزنتها فجأة. حاولت كسر الصمت وعقبت على كلامها:

– أكيد طبعًا، هناك اختلافات بين القاهرة والمدن الأخرى، الإسماعيلية أكثر هدوءًا... وعندنا مانجو.

كنا قد وصلنا المسجد عندما أنهيت جملتي، وضحكت هي عليها، ثم استأذنتني لدخول المسجد. بدأت هي في الصلاة فور دخولها، بينما لا أزال أبحث عن مكان أضع فيه كتبي في أثناء الصلاة. وبعد أن أنهيت صلاتي، حملت كتبي وتحركت وأنا عازمة على إلغاء خطتي للراحة والعودة إلى مواصلة البحث عن الكتب.

خرجت. ولمفاجأتي، وجدتها في انتظاري. ظننته لقاءً عابرًا، لكن يبدو أنها لم تعُدّه كذلك. بمجرد رؤيتي، ابتسمت ابتسامة وديعة وهي تسألني كأننا معرفة قديمة:

– نرجع مكاننا؟

لا يمكنني الرفض طبعًا. شعرت أنها لن تطلب هذا وهي لا تحتاج إليه فعلًا. رجعت معها من الطريق نفسه، لكن لم نجد مكاننا خاليًا بطبيعة الحال، وجدنا مقعدًا آخر فتوجهنا إليه دون كلام. لكنه كان مغطى بالتراب، فأخرجت هي منديلها وبدأت تنظيفه، ووضعت أنا كتبي على الأرض لأخرج منديلًا، لكنها أشارت لي بالجلوس.

– أنا بنضف دا عشانك.

شكرتها وجلست في ارتباك، لا أعرف كيف أرد على هذا التصرف الرقيق، وجلسَت بجواري، صمتنا بضع ثوانٍ، ثم قالت:

– إنتِ في الشمس.

وظلت تُفسِح لي مكانًا بجوارها حتى تأكدت أني أجلس في الظل.

شكرتها ثانية وأنا على وشك البكاء من طاقة الحنان المفاجئة التي قابلتني في منتصف اليوم الطويل. أجابتني:

– إنتِ زي بنتي.

ثم صمتت قليلًا، وكأنها تفكر لو كانت ستكمل الكلام أم لا، ثم أكملت:

– لو كنت خلّفت، أصل أنا آنسة، ما اتجوزتش لحد دلوقتي.

قالتها وهي تنظر في وجهي، كأنها تفتش عن تعبير معين تنتظر أن يبدو عليّ. حرصت ألا يبدو عليّ شفقة من المؤكد أنها ستؤلمها، أو رثاء يؤذيها، أو عدم اهتمام قد يجرحها. حرصت أن يبدو عليّ ما أشعر به فعلًا: الرأفة لحالها، والتعجب من كون سيدة بهذا اللطف وحيدة.

ولم أجد كلامًا لأقوله، فاستمرت هي في الكلام بعد أن اطمأنت إليّ في ما يبدو:

– على فكرة أنا طلعت معاش من كام شهر، كنت دكتورة في الحكومة... حاليًا شغلي في عيادتي الخاصة.

ثم ترددت قليلًا وأكملت:

– دكتورة تغذية، سمنة ونحافة.

قلت لها في سرعة –وكنت أعنيها فعلًا– إن السن لا تبدو عليها إطلاقًا. ضحكت بسعادة حقيقية، وبعدها استمرت في الكلام:

– طلعت معاش، وما اتجوزتش، لأني كنت أبحث عن رجل محترم متدين، نتكلم مع بعض، ومفيش نصيب.

كانت تتحدث بجدية، كأنها ابنة عشرين سنة تبحث عن صاحب النصيب، وتحلم بفارس الأحلام. دعوت لها أن تجده، فأمّنت على دعائي، ثم أكملت:

– أنا لم أشترِ أي كتاب، لأن قدرتي على القراءة قلّت. السن ليست السبب، لكن بعد المعاش، فقدت إرادتي وطاقتي. على فكرة، بحضر دروس دينية في الجامع، وبتمشى في النادي، وبشتغل في العيادة وأون لاين، لكن كل ما أحكي لحد عن حالتي بعد المعاش، يقول لي عليكِ بالدكتور النفسي... كأني مجنونة، مع إن كل الناس بتتضايق أحيانًا.

تركتها تسترسل في الحديث؛ لأنه يمكن لأي أعمى رؤية بوضوح أنها لم تحظَ بفرصة كهذه منذ زمن، وتوصلنا في نهاية الحديث أنها ربما تجرب زيارة أخصائي نفسي، لأجل الحديث فقط لا العلاج الدوائي. أعجبتها الفكرة، فرشحت لها بعض الأسماء في القاهرة، وفتحت جوجل لأبحث لها عن أرقامهم.

كانت تنظر في الهاتف بينما أبحث في محاولة لفهم ما أفعله. يئست، فصرفت نظرها عن الهاتف وهي تتمتم:

– عجزت تمامًا عن فهم موضوع البحث في جوجل، مع أني

أستخدم تطبيقات أخرى على الهاتف.

صمتت قليلًا وأكملت:

– يمكن لو كان عندي ولاد كانوا شجعوني أفهمه... صح؟

المرارة، التي قالت بها الجملة الأخيرة، أربكتني، وعجزت عن الرد، إلا بكلام أحمق من نوعية « الإنترنت ليس للجميع وهذا طبيعي تماما ». أخيرًا، وجدت الأرقام المنشودة، ونقلتها لها على هاتفها.

سألتني عن كليتي، ونظرت إليّ بفخر حين أخبرتها أنها طب الأسنان، وفتحت فمها لتخبرني ببعض الشكاوى من أسنانها، وهو ما اعتدته فور أن يسمع الناس تخصصي. أجريت لها فحصًا سريعًا، واقترحت عليها بعض الخطوات لأسنان أفضل، فدونتها في حماس.

في نهاية الحديث، قالت ما عرفته منذ اللحظة الأولى:

– على فكرة أنا مش جاية أشتري كتب، أنا كان نفسي أشوف ناس أو أتكلم مع ناس، فقلت أنزل المعرض أكيد كله ناس كتير.

صمتُ، وحضنتها، وقمت وفي قلبي غصة لألحق بأتوبيس الإسماعيلية، وسآتي في يوم آخر لأعوض بقية الجولة.

قضيت الطريق أفكر في السيدة وفي حديثها، وألوم نفسي ألف مرة لأني لم أفكر في طلب رقم تليفونها، ثم أخفف عن نفسي بأنها لو أرادت لعرضت، ربما لا ترغب إلا في حديث مع غريب. ظللت أتأرجح بين اللوم والتبرير والحزن، حتى نمت في مقعدي في الأتوبيس من فرط الإرهاق. حلمت بها في شبابها، وكنت أخبرها أني وجدت لها عريسًا ممتازًا تنطبق عليه مواصفاتها، وهي تضحك

ضحكتها الوديعة، وتقول بأداء مسرحي: «تظل الأنثى أنثى إلى الأبد.»

الحكاية الخامسة عشرة، والأخيرة

فستان أزرق لخمس دقائق

«تحكيها حبيبة نزيل آخر لا نعرفه»

يا رب كل من له حبيب،

وطال بعاده ولا قريب

ما تحرموش منه،

وهاته له بالسلامة

هذه المرة الأبيات لأمين صدقي

استيقظت اليوم مبكرة على غير العادة، لم أستغرق وقتًا لأدرك ما حولي كما هي العادة، بل فور أن فتحت عينيّ اعتدلت في جلستي، وأضأت كل أنوار الغرفة لأتمكن من إلقاء نظرة فاحصة على ملامح وجهي في المرآة المقابلة للفراش. يبدو وجهي أكثر صفاءً من المعتاد. ربما يعود الفضل إلى قناع العسل والزبادي وصابونة الشوفان والعسل اللذين ختمت بهما الليلة الفائتة. ووجنتي حمراء، ربما بفعل مسحوق دم الغزال الذي وضعته عليها قبل النوم، أو ربما بسبب حرارة الجو اليوم، ولا أثر لبكاء الأمس في عينيّ، ربما بسبب مكعبات الثلج التي وضعتها عليهما بعد أن أنهيت فقرة البكاء. عمومًا، شعرت بالرضا اللحظي عن شكلي على غير العادة مؤخرًا. بداية مبشرة لليوم، أول يوم في عامي الجديد، بعد عيد ميلاد حزين رغم محاولات أمي وخالتي وسلوى الصادقة لجعله يبدو أقل بؤسًا.

أنهيت روتين ما بعد الاستيقاظ سريعًا، وتخطيت خطوة الإفطار كالعادة لأبدأ في البحث عن إجابة لسؤال كل مرة: ماذا أرتدي؟ يجب عليّ الاختيار بدقة لأبدو جميلة بالقدر المطلوب بالضبط؛ فلا يمكنني هناك أن أكون فاتنة بصورة لافتة، ولا أريد أن أكون عادية أيضًا، بل أكثر جمالًا من أيامي العادية، جمال يكفي لكي يلاحظه هو فقط وحده، ولا يجلب لي المتاعب.

أبدأ في تجربة الملابس على التوالي. هذا البنطلون ضيق جدًا، وهذا قبيح جدًا، وهذا القميص الأخضر شديد العادية، وهذا الفستان قصير جدًا، وذاك أبيض اللون لن يتحمل المشوار والتراب. بعد نصف ساعة، أستقر على واحد من فساتين كريم المفضلة؛ فستان أزرق اللون تتناثر عليه ورود بيضاء صغيرة، به حزام من المنتصف لا أُحكِم ربطه تمامًا لكن أربطه بما يكفي ليُبرِز خصري المنحوت، وهو مع ذلك طويل يصل إلى بعد الركبة بكثير، ويغطي ثلثي ذراعي، فلا يمكن وصفه بغير أنه محتشم. ألبسه، وأمشط شعري وأنا أدندن: «أتمنى أشوفه ولو صدفة، ويشوف تسريحتي وفستاني.» لا يمكنني أن أترك شعري مفرودًا؛ فهذه ليست سهرة خاصة. أربط شعري على هيئة «كعكة» تعطيني مظهرًا صارمًا جادًا، ثم أقترب من المرآة لإلقاء نظرة عن قرب. أزيل بالملقاط شعرة شاردة فوق فمي، هو لن يلاحظها غالبًا؛ لأن الإضاءة هناك لا تسمح بأي شيء، لكن أحب أن أكون في أفضل حالاتي. أضع واقي الشمس الرخيص تحسبًا للانتظار الطويل، وخطًا رفيعًا من الكحل بحيث لا يبدو كأني أضع أصلًا لكنه يعطي التأثير المطلوب. لا يمكن المجازفة بتلوين شفتيّ؛ فربما تكون مبالغة في الزينة، أكتفي بمرطب شفاه يعطي ظلًا ورديًا

خفيفًا بحيث يبدو الأمر كأن هذا هو لونهما أصلًا.

أتنهد. «أتمنى أشوفه...» أشرد قليلًا في طريقي إلى الغرفة الأخرى، وأتمّم على محتويات الحقيبة التي كنت قد جهزتها منذ الليلة الفائتة: طعام، وملابس، وسجائر، وكتاب نحبه نحن الاثنين طلبه مني في آخر مرة.

أنظر إلى الساعة لأجد في فزع أني تأخرت. أنزل مسرعة بقدر ما تسمح به الحقيبة العملاقة على كتفيـ وأتمنى لو امتلك الإنسان القدرة على الطيران، لا أعني أن يمتلكها في المطلق، لكن على الأقل يُمنَحها كهبة مؤقتة حين يكون متلهفًا فقط.

لا يوجد وقت لانتظار الميكروباص، لهذا أشير لتاكسي وأركبه طالبة منه أن يسرع إلى موقف برج العرب. يصل الموقف في عشر دقائق، وهو وقت معقول مناسب للمدينة الصغيرة. أمنحه أجرته، وأحمل الحقيبة مسرعة داعية أن أصل في الوقت المناسب. لمحت السيارة «السبعة راكب» من على بعد، حططت الخطى خوفًا من أن تمتلئ وأُضطَر إلى انتظار السيارة التالية. وصلت في اللحظة المناسبة تمامًا، وحجزت آخر مقعدين، واحد لي وواحد للحقيبة؛ فلا يمكنني أن أحتمل وزن الحقيبة الثقيلة طول الطريق، كما أن هذا يوفر وقتًا؛ لأننا لن نُضطَر إلى انتظار راكب آخر، وهو يوم مليء بالمصروفات التي تثقل كاهلي، فلن أجازف بالتأخر لتوفير بضعة جنيهات بعد كل ما أنفقته في تجهيز الحقيبة.

تبدأ السيارة المتهالكة في الحركة ببطء مستفز، وأمضي الساعات الثلاث وأنا نصف نائمة نصف مستيقظة، نصف قلقة نصف متلهفة.

نصل أخيرًا، وقد أفسد الحر شكلي. أهبط من السيارة، وأقف لثوانٍ وأنا أحاول أن أوازن الشنطة الثقيلة على كتفي وأعيد خصلات الشعر الشاردة مكانها، وأركب ميكروباص من الموقف يمتلئ بالوجوه البائسة والحقائب المماثلة لحقيبتي.

نصل محطتنا الأخيرة بعد نصف ساعة بدت كدهر بفعل الحرارة والعرق والروائح الكريهة. أهبط من الميكروباص وأحمل الحقيبة وآخذ دوري وسط الآخرين في الطابور الطويل والشمس فوق الرؤوس كأنه يوم الحشر. أحاول تشتيت نفسي عن كل مشاهد الأسى حولي، وعن الأصوات والتوسلات والزجر والبكاء والنظرات الكريهة المتفحصة. يحين دوري أخيرًا، وأفتح الحقيبة دون طلب منه. يُقلِّب في الحقيبة بأصابعه المتسخة ويفتح علب الطعام ويدفس أصابعه فيها، وأنا أتجنب أن أنظر إليه لكيلا تظهر كراهيتي وغضبي في عيني. يشير لي أخيرًا بالمرور بعد أن يتأكد من صلة القرابة، «زوجة»، وبعد أن يأخذ علبتين من السجائر كما جرت العادة.

ندخل في الظل أخيرًا. المكان موحش وكابوسي يفوح بالعطن، لكن لا بأس؛ فقد اعتدت هذا. أُصبِّر نفسي، كلما هممت بالبكاء، بأني سأراه هنا والآن. ألم يكن من ذلك بد؟ كيف تطورت مشاجرة بسيطة مع رئيسه في العمل إلى هذا؟ وكيف سأكمل السنوات الثلاث وأنا أفكر في كل ليلة أنني حتى لو كنت أنام وحيدة فأنا على فراش نظيف على الأقل، بينما كريم ينام الآن حيث هو؟ وماذا بعد أن يخرج؟ كيف أقنع الجميع أن ما حدث كان تلفيقًا وانتقامًا وأن كريم قوي أمين أسلمه روحي وأنا مطمئنة؟

«خدوا عيني شوفوا بيها.»

يصدح أخيرًا الصوت الأجش الذي اعتدته مناديًا اسم كريم، ويظهر هو من بعيد في ثياب السجن الزرقاء فيضيء الظلام المحيط للحظات. أود لو أحضنه، أود أن أحضن كل شيء فيه، ولا أفعل وسط كل هذه العيون. أفكر: «ماذا فعلوا بك؟» ومثل كل مرة، أقاوم البكاء بكل ما أُوتيت من صبر، وأبتسم قائلة:

– ارتديت لك الأزرق الذي تحبه!

يتمتم:

– أفتقدك كثيرًا.

منذ أن عرفته يقول «أفتقدك» ويراها معبرة أكثر. أجيب: «وحشتني.» ينظر إليّ في صمت ويربت على يدي. لطالما أحببت نظرته الصامتة، كنت وما زلت. يبتسم في إرهاق. بعد دقيقة صمت يتمتم: «حلو الفستان عليكِ، كل مرة بيحلق.» تتورد وجنتاي، يكمل: «بس تخنتِ.» أتظاهر بالغضب، يضحك على غضبي، يضحك فينير كل العتمة المحيطة به، يضحك فيرتوي قلبي الذي يبس، يضحك فيقفز قلبي من موضعه. أخبره عن الطعام الذي أحضرته والكتاب والسجائر، يشكرني في امتنان ويُخرِج وردة صغيرة من الورق. «كل سنة وإنتِ طيبة.» أحكي له سريعًا عن عيد الميلاد بالأمس، ونتمنى معًا أن يكون القادم في حضوره. تمس أصابعه أصابعي ثانية، وقبل أن تسكن يدي للمسته، يدوي الصوت: «الزيارة انتهت.» أتزود من ملامح وجهه قبل أن يرحل؛ عينيه العسليتين اللتين وقعت في غرامهما منذ سنوات بعيدة، وشعره الأسود الفاحم المجعد تجعيدًا

يضفي عليه مزيدًا من الرجولة، ووجهه الذي لم يُخفِ إرهاقه وما لاقاه ملاحته الأخاذة، وأفكر بينما يغيب عن ناظري: «كيف يمكن لخمس دقائق أن تصبح هي زادي الذي أواجه به العالم لأسبوعين؟»

أغادر بوابة السجن المظلم وأنا أحسب كم تبقى على الدقائق الخمس القادمة. أسبوعان يعني ١٤ يومًا. لست بارعة في الحساب فلا أعرف الآن ناتج ضرب ٢٤ في عدد الأيام، لكني أعرف أنها ساعات كثيرة، كثيرة جدًا.

أخوض الرحلة الطويلة المرهقة نفسها في طريق العودة. أفتح فيسبوك لتمضية وقت الطريق. يسألني: «ماذا في عقلك؟» أفتح صندوق الكتابة، وأفكر في إجابة للسؤال. في عقلي وفي قلبي غضب، غضب وحزن وافتقاد وحرمان، ورغبة في الصراخ. أكتب كثيرًا، ثم أمحو ما كتبته. أحدق في الشاشة قليلًا، ثم أكتب جملة واحدة: «يا رب رجّع لي كريم»، وأضغط مشاركة، وأغلق الهاتف، وأنظر من الشباك في انتظار انتهاء الطريق الطويل.